ربيع جابر

نظرة أخيرة على كين ساي

28.1.2014

رواية



المركز الثقافي العربي

ربيع جابر

نظرة أخيرة على كين ساي

رواية

المركز الثقافي العربي

نظرة أخيرة على كين ساي

* نظرة أخيرة على كين ساي (رواية)
* تأليف: ربيع جابر
* الطبعة الأولى، 1998

* الناشر: المركز الثقافي العربي

العنوان:
□ الدار البيضاء/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) • فاكس /305726/ • هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

□ بيروت/ الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
• ص.ب/ 113-5158/ • هاتف/ 352826 - 343701/ • فاكس/ 00961-1-343701/.

هذه الرواية من نسج الخيال، فإذا وُجد أي شبه بين أشخاصها وأسمائها، مع أشخاص وأسماء حقيقيين، أو بين أماكنها وأحداثها، مع أماكن وأحداث حقيقية، فلن يكون ذلك سوى محض مصادفة، ومن الغرائب، ومجرداً عن أي قصد.

الجزء الأول

الساحر

بلغ الساحر قمة الهضبة المطلّة على كين ساي(*) عند المغيب. هذه ثالث مرة تسدّد فيها السماء خُطاه إلى هذه النقطة. الأرض خطوط وإشارات، والإنسان حفنة غبار، أينما شاءت السماء تقذفه، فيرسم أشكالاً فوق خطوط الأرض، ثم يتبعثر ويتلاشى في الهواء. نظر الساحر إلى قدميه. إلى خيوط الدم المنسربة بين الأصابع العارية. إلى التراب المتجمد تحت الأظافر. إلى العشب الذي أيبسته الشمس بعد أن أنبتته من بطن التراب. هذا العشب ذاته داسه قبل عشرين سنة. هذا العشب من ذاك العشب. ليس هو، ولكنه هو. وابتسم. لأنه قبل عشرين سنة أُخرى، أي قبل أربعين سنة من الآن، تسلق هذه الهضبة مع قطيع من الأغنام، والأغنام أكلت كلّ العشب، الطري واليابس.

لكن ها هو العشب حول قدميه. العشب نفسه. نحيل وأصفر ويميل مع نسيم آخر النهار. في المرة الماضية، قبل عشرين سنة، ركع الساحر هنا، وأنزل عن كتفه جسد العذراء النائمة، التي جاء

(*) «مدينة السماء».

بها ملفوفةً بالحرير، قاطعاً الصحاري والأنهار والبحيرات المالحة، ليجعلها ملكة.

رأى نفسه محاطاً بالأغنام. صوت الثّغاء في ثقبيّ أذنيه، ومن تحته يتعالى هدير النهر ممتزجاً بأغاني العمال وضجيج أدواتهم. في أول مرّة وقف فوق هذه الهضبة، قبل أربعين سنة وحسب، شاهد تاريخ المدينة يبدأ، إذ أشرف العمال على الانتهاء من بنائها. ذلك المشهد، مشهد المدينة العجيبة وهي تتشكل وتكتمل أمام عينيه، بدا له الآن مشهداً من منام، بدا له مناماً رآه قبل أربعين سنة، وها هو الآن يستعيده فجأة، إذ يرى حقاً، وفوق أرض هذا العالم، مشهداً مطابقاً له.

ابتسم مرة أخرى: ألم يكن هذا ما حدث أصلاً؟ أليست هذه المدينة، مدينة كين ساي، مدينة من نسج الخيال؟ ألم يرَها الملك(*) الذي بناها في منامه، فلما استيقظ من المنام، رسم الصورة على الورق، الصورة التي جعلها خريطة هذه المدينة، وجعل المصورين يرسمونها على جدار بهو الاستقبال في القصر الكبير ما أن انتهوا من بنائه؟

في المنام رأى ذلك الملك، وكان عرشه في كاتاي، أنه يمشي فوق رقعة شطرنج عملاقة قُسمت إلى مربعات تفصل بينها خطوط غريبة. فالخطوط العمودية شوارع من الحجارة والتراب، وأما الأفقية فقنوات وجداول ماء. رأى أن المربعات التي يمشي فوقها تقوده، إذا ذهب بموازاة تيار الماء الجاري في القنوات الأفقية

(*) الملك بنغ، من أسرة شانغ.

المتوازية، إلى شاطئ بحيرة شفافة كالبلُّور، فسيحة كسهل الصين، وفي وسطها تتباعد جزر مستديرة تغطيها غابات خضراء. رأى أيضاً أن السير في الاتجاه المعاكس يأخذه إلى نهر عظيم، ينحدر جنوباً بموازاة الضلع الشرقي لرقعة الشطرنج، ثم ينعطف في زاوية شبه قائمة نحو الغرب، ويمضي بمحاذاة الضلع الجنوبي للرقعة مخترقاً السهل، حتى البحر البعيد. وقف وسط الرقعة. رأى خط الحجارة والتراب تحت قدميه يزداد عرضاً، وأحس بارتجافة في ساقيه، فأدرك أن ماء الأقنية يجري من تحت التراب في هذه النقطة. رفع رأسه ونظر جنوباً فرأى النهر والهضبة بعده. استدار ونظر شمالاً. تأمل الجبال العالية من حيث ينبع النهر. فوق الجبال كانت السماء عميقة الزرقة كأنها ستمتصه إلى أعماقها، إلى عالم آخر.

فتح الملك عينيه وبدأ يرسم صورته. رسمها على ورقة سمراء نشرها فوق ظهر المرأة الممددة قربه. كانت المرأة نائمة. أحست بالورقة الجافة على ظهرها المتعرّق، وبالريشة المبلّلة بالحبر وهي تخط الرسوم. حين وضع الملك النقاط التي تحدّد زوايا الرقعة تأوهت المرأة.

كان الوقت صيفاً، والنسيم الخفيف يدخل من النوافذ المفتوحة. مدّت المرأة ذراعها اليمنى وجذبت جرساً عن الأرض وقرعته، كي تدخل الجواري بالمراوح الورقية وتُحرك الهواء الراكد أكثر، فالنسيم يهب لحظة ثم يموت لحظات طويلة. لكن الملك خبط الجرس فأسقطه من يدها وصرخ بأعلى صوته مانعاً دخول أي مخلوق: كان يريد أن ينتهي من الرسم بسرعة. كان خائفاً أن تفرّ الرؤيا من جمجمته قبل أن يثبّتها بالحبر على الورق، فلا تضيع أبداً.

قطرات العرق كانت تسقط عن جبهته فوق الخطوط السوداء المتقاطعة. ارتجف ظهر المرأة فشكّ الريشة فيه. وفكر: «ما هذه الطاولة المتحركة؟» غمس رأس الريشة في قارورة الحبر، وأحس بالشرنقة الحريرية في قعر القارورة تتعلق برأس الريشة للحظة ثم تفلته. جذب الريشة. كان الرسم يكتمل أمام عينيه. مع كل خط إضافي يستعيد تفاصيل منامه، وتتبدى المدينة أمامه. شوارعها المرصوفة بالحجر المدوّر المصقول. قنواتها المائية. الجسور فوق القنوات. الضوء الذي يلمع فوق سطح البحيرة المستوي كوجه المرآة.. قفز عن السرير، فسقطت قاروة الحبر على الشراشف. سال الحبر تحت جسد المرأة. امتزج بعرقها ومائها.

الرسم في يده، وجسمه يرتجف. هتف للحاجب كي يجمع حكماء المملكة، وسَحَرتها، وكل المصورين المقيمين في أرجائها. كان يعرف تفسير منامه لكنه أراد أن يتأكد. بالفعل جاء جواب المنجمين مشتركاً: السماء أوحت له بصورة مدينة، ذات هندسة خارقة وفريدة، كي يبنيها.

عندئذ بدأ العمل: أرسل فرسانه إلى أنحاء المملكة للتفتيش عن البقعة المناسبة لبناء المدينة. وجعل تعليماته مكتوبة وواضحة: عليكم البحث عن رقعة مستوية من الأرض، يحدّها نهر من جانب، وبحيرة من الجانب الآخر، تواجهها هضبة، وخلفها جبال شاهقة.

في البداية عاد الفرسان بنبوءات كاذبة. قالوا وجدناها. ذهب معهم فلم يجد شيئاً. هناك هضبة بلى. وهذا نهر. كما توجد بحيرة. لكن النهر لا ينعطف في زاوية شبه قائمة. والهضبة ليست

هضبة بل تلة صغيرة تشبه بيت نمل. والبحيرة مياهها خضراء والسرخسيات تغطيها. وهكذا.

فاستعان الملك بالمصورين، كي يظهروا للفرسان والكشّافين وجميع أهالي كاتاي والمدن المجاورة، البقعة التي يبحث عنها الملك لبناء المدينة التي طلبتها السماء.

المصورون أجادوا في رسومهم، حتى أحسّ الملك للحظة عابرة أنهم أبدعوا مدينة أجمل من تلك التي رآها في منامه. لكن الحكماء في القصر طمأنوه قائلين: «هؤلاء المصورون يرسمون ما وصفته أنت، وما رأيته أنت، فإذا فكرت الآن أن صورتهم أجمل من الصورة التي شاهدت في منامك، فهذا ناتج عن الطبيعة الإنسانية. فالإنسان ينسى مع الوقت كل شيء. وهكذا فالألوان الجميلة التي تملأ مناماته تبهت مع مرور الزمن وتفقد جمالها، لكن هذا لا يعني أنها لم تكن جميلة».

اقتنع الملك وانتظر. صبر الأيام والأسابيع. وفي منتصف الشهر الثاني من الانتظار عثر أحد فرسانه ـ كانت له عين واحدة، وأما العين الأخرى فكان قد فقدها في إحدى المعارك قبل سنتين ـ عثر على الرقعة المنشودة. يُقال أنه اكتشفها بمحض الصدفة، إذ كان عابراً في الجانب الآخر من الهضبة، حين ارتعد حصانه لرؤية ثعبان أخضر يعبر أمامه، فجفل، وانطلق يعدو متسلقاً الهضبة، حتى بلغ قمتها.

هذه القمة حيث يقف الساحر الآن، متأملاً العشب اليابس حول قدميه، ومتسائلاً هل قضم الحصان الخائف، والمتصبب

عرقاً، بعضاً منه، في ذلك العصر البعيد الذي مضى قبل خمسٍ وأربعين سنة.

رأى الساحر الملك يقف محاطاً بالحاشية ينظر إلى العمال يبنون المدينة يوماً بعد يوم. المدينة التي استغرق بناؤها خمس سنوات وحسب. لأن الملك جلب إلى هنا جميع عمال المملكة وبنائيها. وجعلهم يعملون في الليل والنهار. في الصيف والشتاء. في الليل يشعلون نيراناً هائلة. في الشتاء يرتدون المعاطف ويعملون في الجليد. في الصيف ماتوا من الحرّ، طقّت قلوبهم وسُفكت مراراتهم. في الصقيع تيبست أطرافهم، وانطفأت عيونهم. والملك، جالساً في السرادق أعلى الهضبة، يتفرج. وحين يشتد الحرّ أو القرّ، يمضي إلى قصره، في العاصمة كاتاي، حيث الجنائن تنتشر فيها الغزلان والأرانب وأصناف الطيور، وحيث قصر النساء الذي يضم ثلاثة آلاف خليلة.

في ختام السنة الخامسة، وبينما العمال ينتهون من تركيب آخر بوابات المدينة، البوابة الجنوبية، سكت قلب الملك، فمات منتفضاً، أثناء مضاجعة إحدى خليلاته. صادف أنها كانت الخليلة ذاتها التي دخلها قبل أن ينام، في تلك الليلة البعيدة(*)، قبل خمس سنوات وشهر ونصف الشهر تقريباً.

نظر الساحر إلى صفحة البحيرة. خطوط الضوء البرتقالي تنتشر

(*) ليلة المنام، ليلة رأى نفسه يتجول في أنحاء مدينة تشبه لوحة شطرنج.

فوقها كضباب خفيف. كان المساء يُقبل كثعبان يزحف فوق الماء، فيتمدد في جميع الاتجاهات، ويغطي السهل والنهر والبيوت وسور المدينة وأبراجها. تساءل لماذا لا يضيئون الشموع والقناديل والمشاعل. ثم تذكر ما قاله الحاكم. عندما تذكر استدار والتفت إلى أسفل الهضبة، إلى حيث كان قبل دقائق. رأى أنهم قد أشعلوا النار كما أمرهم. سمع صهيل الجياد، ورأى في ضوء النار الموقدة، أنهم كانوا يذبحونها بالسيوف، ثم يرمونها وسط كومة الحطب العظيمة. صعدت رائحة اللحم المحترق صوبه، فرفع رأسه نحو السماء الزرقاء ـ البرتقالية. شاهد الغيوم الوردية الممزقة تعبرها، وقال:

ـ هذا قربان صغير. الأحصنة حملتنا من فاجيو إلى هنا. أربعة أيام وهي تعدو دون توقف. هذا يدلّ على عظمتها. هذه الأحصنة العظيمة قربان صغير، لأن الركض أنهكها، حتى خسرت عظمتها في عين البشر. وكل عظمة تُخسر في عين الإنسان، تُربح وتتعاظم في عين السماء. لقد هزلت أجسادها، وظهرت العظام من جلدها، هذه الأحصنة، باتت على قاب قوسين أو أدنى من الهلاك. البغل أنفع منها الآن، وتاجر الخيل الأكثر سذاجة يعلم هذا. ولكنها أيضاً امتلأت بالروح العظيمة. كانت تركض من قلبها، وبقوّة قلبها. كانت تركض لا لتصل بنا إلى هنا، وهو ما فعلته عرضاً وليس قصداً، وإنما كانت تركض لتبلغ حافة السماء، حيث العظمة الحقيقية. إذ نقدمها الآن قرباناً لا نفعل ذلك إلاَّ عرضاً، لأن السماء قصدت منذ البداية أن تجعلنا أداة وصول هذه الأحصنة إليها. لأن السماء أرادتنا مطيةً لأحصنتنا. فمَنْ قربان مَنْ أيتها السماء الواسعة التي لا حدّ لها؟

نكس رأسه. رآهم كالأشباح، كالظلال العمياء، يرقصون حول النار، والظلال ترقص حولهم، في الوهدة، تحت. رأى الحاكم بينهم. تَمَيَّزَهُ من الرداء الحريري الأزرق، الرداء الذي ظل محافظاً على لونه ونسيجه المتألق، رغم الرحلة الطويلة، رغم شعاع الشمس، رغم رمل الصحراء، ورغم ماء البحيرات المالحة وجميع إفرازات الجسم البشري.

هو الحرير، فكر الساحر متذكراً كيف ركع هنا قبل عشرين سنة، وأنزل العذراء النائمة عن كتفه، ثم حرّرها من شرنقة الحرير الصفراء ـ البيضاء، التي غزلتها الديدان حول جسدها الكامل، كي تحميها من عين الإنسان، ومن طغيان العناصر.

ارتجف جسمه كلّه. رفع نظراته إلى السماء من جديد، كان اللون البرتقالي ينسحب منها، ورمادية السماء تكسو قطن الغيوم. دعا من أعماق قلبه أن تقذف السماء أمام خطواته نوراً ليصل إلى الحقيقة، وليشفي الملك والمملكة. قال هامساً:

ـ إذا عيني أخطأت فقلبي لا يحمل وزر خطيئتها. فلتُضربْ عيني بسهم النار لكن فليُحفظ قلبي من الظلمة. أعلمُ ما أنا أيتها السماء، وإن كنت إنساناً فصلواتي إليك زرعت فيَّ اليقين: قد أكون إنساناً لا يثبت على حال، لكنني كنت حفنة غبار في البداية، ولن أكون أكثر من حفنة غبار في الختام.

ارتجف أيضاً، وتابع:

ـ وأما ذلك المنام فخطيئتي. والقربان ليس عندي حتى الآن. فهل أُعطى القربان ويُصفح عني؟

نكس رأسه وتذكر المنام. حدث ذلك قبل أربعة أيام: كان نائماً في كهف في الصحراء الممتدة بين سن جوي وفاجيو. منذ أسابيع لا يأكل ولا يشرب. في الشهر الماضي قصد سن جوي(*) لأن عينه اشتاقت إلى وجوه الناس. هناك، في الأسواق المزدحمة، أحس بالبهجة تملأ قلبه، فخاف فوراً، إذ فكّر أن وجوده بين الناس قد أنساه للحظة السماء، فقرر أن يدخل في صيام، يبقى داخل كهف مظلم، ويحرم عينه من نور الشمس الحلو، حتى تنزرع السماء فسيحةً وبلا حدود داخل صدره من جديد.

خلال صيامه نام، فرآها. بلى، الملكة، العذراء النائمة التي جلبها إلى كين ساي قبل عشرين سنة كي تنقذ المدينة والمملكة من الدمار. آنذاك كانت الحرب تقسم المدينة إلى قسمين، والمملكة إلى مملكتين.

الجلبة أيقظته. كان يسبح في ماء عينيها حين أيقظته الجلبة. فتح عينيه ورفع رأسه فرآهم في فوهة الكهف. الوقت عصر. الفضاء برتقالي كالح، وهم كالرسوم السوداء على الورق الأبيض، جوانبهم محدّدة بالضوء الواهن، وأجسادهم مليئة بالظلام. في البداية فكر أنهم رسل الموت. لكن الشبح الذي انفصل عنهم متقدماً إلى أعماق الكهف كان يرتدي ثوباً أزرق. الثوب الخاص بحاكم المدينة السماوية، بنائب الملك. إذاً، فهؤلاء ليسوا رسل الموت، قال.

لكنهم من أرض الموت كانوا قادمين. لأنهم ـ هكذا أخبره

(*) «مدينة الأرض».

الحاكم المتعب ـ يأتون إليه وأجسادهم مشدودة نزولاً نحو مركز الأرض، فالملك مريض، مريض جداً. لا أحد يعرف سرّ مرضه ولا أحد يستطيع أن يشفيه. إلاّ السماء. لكن من يفهم لغة السماء، وماذا تريد السماء؟

نظر الساحر إلى المدينة غارقةً في العتمة. شمّ رائحة الموت. بدأ يهبط الهضبة. ثوبه الأسود الفضفاض الطويل يعلق بالشوك، فيجذبه برفقٍ كي لا يتمزق. والحصى تجرح كاحليه وأصابعه. تعثر وكاد يسقط على وجهه. فكر أنه شارد. رغم الأيام، والمسافة التي تفصله عن ذلك الكهف، ما يزال أسير ذلك المنام الغريب.

رأى الأشباح تتحرك قرب البوابة الكبيرة. أبصر الجسر الخشبي ينزل مشدوداً بالحبال فوق النهر، فيصل الضفة الأخرى بهذه الضفة. لقد رأوه من أبراج السور، وعرفوه. من غيره يأتي إلى مدينة ملعونة، في أول الليل؟

قال له الحاكم أن اللعنة حلّت على المدينة لأن الملكة. . .

هزّ الساحر رأسه طارداً كل الأفكار بعيداً. تذكر ذلك اليوم، قبل عشرين سنة. رأى الملك، الذي لم يكن ملكاً آنذاك بل حاكم هذه المدينة وحسب، رآه ينحني فوق العذراء النائمة ويُقبّلها في فمّها فتستيقظ من السبات. كم دام سباتها؟ سنة، عشر سنوات، مئة سنة، من يعلم؟ استيقظت، فحلّ الصمت. منذئذٍ لم تحدث حربٌ واحدةٌ داخل المملكة. حاكم المدينة السماوية صار ملكاً على مملكة مانجي. جعل كين ساي مقرّه الصيفي. وبات يقضي ما تبقى من السنة في كاتاي، عاصمة المملكة وأكبر مدنها، بعد أن

أقام على عرشه نائبين: الأول يحكم كاتاي، والثاني يحكم كين ساي. الأول ثوبه أحمر، الثاني ثوبه أزرق. والإثنان كانا أخوين له من أبيه.

حدث ذلك قبل عشرين سنة. طوال هذا الوقت عمّ الازدهار أنحاء المملكة. أنجبت جارية الملكة المفضلة(*) (تُدعى تاتشون)، أنجبت للملك أخوين توأمين، وعدداً لا يحصى من البنات. كانت الملكة تنام أكثر من عشرين ساعة في كل يوم، لأنها اعتادت طوال سنوات وسنوات على النوم دون لحظة استيقاظ واحدة. خلال الساعات الأربع التي تبقى فيها مستيقظة كانت تجلس إلى جانب الملك على العرش، إذا صادف أن الوقت كان نهاراً، فتقابل الحاشية والنبلاء وتبادلهم بعض الكلمات والإيماءات، ووجهها محجوب ببُرقع شاش. وأما إذا صادف وقت استيقاظها ليلاً فإنها كانت تبقى حيث هي، في المخدع، محاطةً بالوصيفات، حتى يدخل عليها الملك، فيهجعا معاً.

لكن اللعنة حلّت.

فقبل شهرٍ فقط، خلدت الملكة إلى النوم كعادتها كل يوم. لكنها في هذه المرة لم تستيقظ، وظلت نائمة.

(*) من عادات تلك العصور البائدة، أن المرأة التي لا تلد، تمنح زوجها إحدى جواريها، فيدخل الزوج على الجارية، فتلد الجارية على ركبتيّ سيدتها، فتُرزق المرأة من جاريتها بنينَ، وهذه العادة كانت منتشرة أيضاً بين الإسرائيليين. (انظر «العهد القديم»: سفر التكوين، 30).

الجزء الثاني

الشجرة والطريق

الصديقان

قبل زمن بعيد، عاش في مدينة تُدعى كوي جوين(*)، صيادان صديقان، أحدهما يُدعى ياو، والآخر هوي. كان الأول في الخامسة عشرة، والثاني في السادسة عشرة. معاً كانا يخرجان إلى الصيد في أنحاء البرّية المحيطة بأسوار المدينة، في رحلات طويلة يدوم بعضها أسبوعين، وبعضها الآخر شهرين.

حين يدخلان بوابة المدينة من جديد، وقد حملا صيدهما خلفهما على البغال، يهرع إليهما تجار الجلد والدباغة، ويحتشد الفضوليون في مدخل المدينة. هنا، في كوي جوين القائمة أقصى شمال مملكة مانجي، كانت تُدبغ أجمل جلود المملكة، ثم تصدّر مباشرة إلى العاصمة كاتاي، أو إلى ما وراء البحيرات الأربع، حيث الممالك الأخرى التي تُكوّن الإمبراطورية العظيمة.

كان ياو صاحب أحلام، ويريد أن يرى العالم الموجود خلف السور الصيني العظيم الذي يفصل الإمبراطورية عن باقي العالم. وأما هوي فكان سعيداً في كوي جوين ويجد البراري المحيطة بها واسعة وبلا حدود كدرب التبانة.

(*) بادت هذه المدينة وغطّتها الرمال قبل وقتٍ طويل من بناء مدينة كين ساي.

ذات ليلة استيقظ ياو فزعاً. هزّ هوي الراقد على التراب قربه. فتح هوي عينيه فرأى الجمرات تتوقد وسط النار الصغيرة التي أشعلاها لإبعاد النمور والضباع عن مرقدهما. حدّق هوي إلى وجه ياو. رأى الخوف يلمع كضوء النجوم في عينيه.

ـ ما بك ياو؟

ابتعد ياو إلى الخلف خطوةً، ثم جلس حيث كان نائماً. تحت مؤخرته كانت الأرض دافئة وهابطة قليلاً. تململ في جلسته، ثم فرك عينيه بأصابعه. قال إنه رأى حلماً غريباً.

ـ رأيتني في كهفٍ عميق. وأنت تتحرك قرب الفوهة. لونك أسود، وبعدك الهواء أبيض. ونقاط سوداء ومدوّرة تقع من جسمك، فتحفر التراب الأبيض تحت قدميك. ورأيتني أحاول الركض صوبك فأسقط وأدور في الهواء. أجدني معلقاً من السقف، من نتوء صخري في سقف الكهف. حين أحاول النظر صوبك من جديد، يعميني الضوء الوهّاج ويحرق عيني.

سكت ياو بعد أن قصّ منامه. حدّق إلى أصابعه وإلى التراب، ثم مال بوجهه صوب النار، وقذف فيها عوداً. طقطق العود، تطايرت منه شرارات، تعالت في عتمة البرّية، صفراء وحمراء في الظلمة، والدخان يحيط بها، ثم تلاشت. طقطقت حطبة أخرى، تطاير شررٌ جديد، ولفحت السخونة وجه ياو ورموشه.

وأما هوي فبقي راقداً في مطرحه، يكتم الضحكة، لأن الضحك في وجه المنام خطيئة. حين سيطر على نفسه تكلم أخيراً:

ـ كانت نقاط سوداء تقطر مني، هكذا رأيت؟

التفت ياو صوبه. ابتسم، ثم دمدم:

ـ الآن يبدو الأمر نكتة وسفاهة، أما في المنام...

ـ لا، لا...

أدرك هوي، وهو يتلعثم، أن نبرة السخرية كانت قد تسلّلت إلى جملته الأولى. خجل والتزم الصمت. لأنه يعرف ياو جيداً، ويعرف بالتالي أن ياو لا يخاف بسهولة، لا في هذا العالم، ولا في عالم النوم.

على مسافة مترين أو ثلاثة، كانت الحمير والبغال راقدة، فوق التراب والأعشاب الطرية التي جمعاها لها من الدغل القريب. بين حين وآخر تصدر عنها همهمة. من الدغل تتناهى أصوات الحشرات الليلية. ومن جهة البحيرة البعيدة تأتي، إذا هبّ الريح الغربي، رائحة الملح والعطونة.

قال هوي:

ـ ياو، ماذا تعتقد أنك ستجد خلف السور، أقصد إذا ذهبت إلى هناك؟

كان هوي يحاول إبعاد ذهن صديقه عن المنام الذي أفزعه.

أجاب ياو بصوت غير متحمس:

ـ لا أعلم. ولهذا أريد المضي إلى ما وراء السور.

سكتا. بدا أن بقايا كلماتهما قد تحوّلت هي أيضاً إلى شررٍ

يتعالى في عتمة البرية الساكنة ثم يتلاشى في الفضاء. فوق، في الأعالي، كانت السماء قاتمة، وبعيدة كأنها من نسج الخيال. رفع هوي رأسه، محاولاً أن يعثر على نجمة، ثم خفضه. عاد يلتحف ببطانيته ممدّداً ساقيه، كي يسرق ساعة نوم قبل أن يُقبل الفجر.

وأما ياو فاختار تلك اللحظة كي يقفز واقفاً، ويعلن خطته:

- سوف نذهب إلى جبل كويي ونطلب من الساحر أن يفسر منامنا، هيا!

فتح هوي عينيه. قال دون أن يتحرك:

- إلى كويي؟ الساحر؟ منامنا؟

ضحك ياو من الدهشة على وجه صديقه. انحنى فوقه، ثم سحب عنه البطانية، وجرجرها على التراب خلفه حتى مرقد الحمير.

خلال دقائق انطلقا صامتين. تدريجاً بدأت السماء تتلون بالأخضر والأحمر والأزرق. الضوء الواهن المتبدل ينعكس على التراب والرمل. حين جاءت رائحة الملح مع هبوب رياح الفجر، أيقظت هوي تماماً. التفت إلى ياو عن يساره، فوجد جسده يتأرجح فوق المطية البليدة، ونظرته إلى السماء شاردة، كأنه في غيبوبة، كأنه غير شاعر بجسده.

تكلم هوي مبتسماً إذ تذكر كتاب تشوانغ تسه(*) المقدس:

(*) تشوانغ تسه (369 - 286 قبل الميلاد). أحد كبار حكماء التاوية.

ـ ما هذا؟ أيمكن لجسدك أن يكون كالخشب اليابس، والذهن كالرماد الخامد؟ الرجل الراكب مطيته ليس هو الذي كان هنا من قبل(*).

لم يلتفت ياو، لم يقل شيئاً. تابع هوي الكلام:

ـ يجب أن تجيبني أن سؤالي في محله تماماً، فكذا أجاب تسه تشي صديقه ين تشنغ. يجب أيضاً أن تقارن بين موسيقى السماء والأرض، أقصد موسيقى الأرض.

استسلم هوي أخيراً وسكت. هذا المزاج الذي يدخل ياو فيه، بين حين وآخر، لا ينفع معه شيء. هكذا، فجأة، تذهب نظراته إلى البعيد البعيد، فتتلاشى الكلمات عندئذٍ قبل أن تبلغ تجاويف أذنيه. أين يذهب في هذه اللحظات؟ أين يكون؟ أهي موسيقى السماء تجذبه إلى أفلاك لا تراها العين؟

تذكر هوي الحياة في دار يتامى المحاربين، حيث نشأ هو وياو، فتعلما على يد الحكيم هواي نان، وحفظا كتب لاو تسه وتشوانغ تسه المقدسة، ونسخا من «أغاني كونفوشيوس»، طوال ليالي الشتاء، الأبيات والهوامش، فوق ورقٍ مصنوع من القطن المقوى بالنشاء والمطلي بمنقوع الجذور النباتية التي لا تنمو إلاّ في كهوف الجبال في مملكة كون تشا. تذكر خروجهما في أيام الصحو إلى البرّية المحاذية للخندق ولملتقى النهرين، هناك حيث تنتشر مخيمات التدريب. تذكر الاستيقاظ فجراً، الندى يغطي الوجه صلباً كالجليد، والعضو بين الفخذين يؤلم من الانتفاخ

(*) جلس تان كوو تسه تشي متكئاً على منضدة. نظر إلى السماء وتنفس بارتياح. بدا كأنه في غيبوبة، غير شاعر بجسده. قال ين تشنغ تسه يو وكان في خدمته: «ما هذا؟ أيمكن لجسد...

والبرد. كان ياو يضحك ويركله كي ينهض ويمضي إلى الدغل. لأنه كان يحس به يتقلب طوال الليل ولا يرتاح في نومه. وحين يضحك هوي أخيراً وينهض ملتفاً ببطانيته، يطلق ياو ضحكة توقظ الآخرين، ثم يقهقه وهو يركل الفضاء بساقيه. أين ذهب ياو ذاك، منذ أن جاء ياو هذا؟ لماذا بات جاداً هكذا طوال الوقت؟ حتى، بينما يلاحق النمر بالسهم والخنجر، يبدو وكأنّ ذهنه في مكان آخر! يبدو كأنه يهم بتسلّق السور العظيم!

والآن، ها هما في رحلة قد تطول عشرين يوماً، يمضيان إلى جبل كوبي، لأن مناماً أفزع ياو.

فجأة أحس هوي بالذنب. جاء الإحساس بالذنب مثل دوامة، مثل إعصار، يدور في أعماق رأسه، وفي أعماق صدره، ويهدد بتفجير جسده إلى شظايا. قد رأى دوامات الصحراء تدخل البيوت من نوافذها وتخلع جدرانها من الداخل وتبعثرها في كل الاتجاهات. هكذا جاءه الإحساس بالذنب الآن. كيف ترك أفكاره تسحبه كما تُسحب الطريدة من ذيلها، فتأخذه إلى هناك، إلى حيث يرى ياو وكأنه العدو وليس الصديق.

التفت هوي إلى ياو وقال:

ـ كنت أسخر منك في رأسي.

أجاب ياو:

ـ أعلم.

قال هوي:

ـ كنت أقول أنك أبله لأنك تحملنا عبر الصحراء من أجل منام.

أجاب ياو:

- أعلم.

قال هوي:

- كنت أقول أنك لست ياو، لأنك ما عدت تفكر إلاّ في الأرض التي وراء السور. والحكيم قال أن الأرض هي الأرض. وما وراء السور يشبه ما قبله. بل هو هو، لا فرق بينهما.

أجاب ياو:

- أعلم، التاو هو التاو دوماً.

فسأله هوي:

- لماذا تمضي بنا في هذه الأرض المقطوعة إذاً؟

تكلم ياو:

- أتذكر حين أخبرنا الحكيم عن السمندر(*)؟

أجاب هوي:

- أذكر.

تابع ياو:

- قال لنا أنه لم يعد موجوداً في أراضي الصين. وأننا قد نخرج من هذه المملكة إلى الممالك الأخرى ونبحث في الإمبراطورية كلّها لكننا لن نجد ولو سمندراً واحداً، أتذكر؟ ورغم

(*) حيوان أسطوري من فصيلة العظاءات. يشبه السحلية، ويعيش في النار، كما يعيش الطير في الهواء، والثعبان في التراب. إذا سُلخ جلده صُنعت منه مناديل لا تبلى أبداً. وحين يتسخ المنديل يُرمى في النار لدقائق - أو لساعة - فينظف ويرجع أبيض كالثلج.

ذلك خرجنا، أنا وأنت، ضعنا في البرايا شهرين، لم نترك حجراً إلاً وقلبناه، لم نرَ ناراً إلاً وقصدناها، ولم نجده. ولكن، أسألك، لماذا فعلنا كل ذلك رغم أن الحكيم أكد لنا أننا لن نجده؟

قال هوي:

- كي نتأكد!

قال ياو:

- بالضبط.

فسأله هوي:

- والآن؟

أجابه ياو وهو يلكز الحمار بعقب قدمه:

- الآن، القلق كالدودة ينهش قلبي وذهني، أريد أن أعلم تفسير الرؤيا التي رأيت.

بعد أسبوعين أشرفا على دغل الخيزران، عند سفح جبل كويي. هنا كان يهدر نهر صغير إذ يسقط في شلال حيث تهبط الأرض نحو «وادي الغزلان». وقف هوي قرب الحافة، نظر إلى الوادي العميق، وإلى خيط النهر الرفيع في الأسفل، ثم سأل ياو:

- لكن أين هي الغزلان؟

فضحك ياو مشيراً إلى السماء الزرقاء، وقال:

- ولكن أين هي النجوم؟

اختارا بقعة بعيدة عن الدغل. أشعلا ناراً، وحمّرا فوقها لحم الأرانب التي اصطاداها في صباح ذلك اليوم عينه. تذكر هوي،

بينما ينهش اللحم الطري، ويشرب آخر قطرة من خمر الأرز الذي يحمله، أن الرجل الذي يعيش فوقهما، في كهف من كهوف الجبل، لم يذق طعم اللحم منذ قرون. وفكر أن الرائحة ـ رائحة الشواء ـ قد تصل إلى كهف الرجل، رغم أن الرياح ساكنة، فقال:

ـ ياو، ماذا لو صعد الدخان المشبع برائحة اللحم إلى أنف الساحر؟

فضحك ياو:

ـ لا تخف. لو أراد الساحر لحماً لجمع حفنة تراب في يده وجعلها أشهى عصفور في العالم. فماذا يزعجه في رائحة شواء؟

ابتسم هوي، فياو يعلم أن هوي يفضل العصافير المشوية على أي صنف آخر من أصناف الطعام، وهو يصيدها دوماً بالصقور.

أطفآ النار. قررا أن يناما ساعة، ثم يباشرا التسلق. تمددا على صوت الحمير والبغال، وهي تقضم أعواد البرسيم، فبقي هوي يقظاً، وأما ياو ـ الذي قال إن القلق ينهش قلبه ـ فنام. نظر هوي إلى صديقه يتنفس براحة، غارقاً في النوم، وتساءل كيف يقدر على النوم الآن، وهو على بُعدِ ثلاث أو أربع ساعات تسلق من مكان الساحر الذي سيفك لهما طلاسم منامهما.

«منامنا؟»، تساءل هوي: «لماذا أقول منامنا، وهو منام ياو، ولماذا تسلل القلق منه إليّ هكذا؟ وممّ أخاف؟ وكيف يقدر هو، رغم القلق، أن ينام؟ ولماذا أبقى أنا كالأبله، أحملق في سماء الظهيرة، والنعاس لا يزور رموشي، رغم أننا لم ننم منذ أيام؟»

أغمض هوي عينيه. جعل يتذكر الكلمات المقدسة: «في منأى

بعيد، عند جبل كويي، عاش رجل روحاني كان لحمه وجلده كالثلج والجليد وكان في لطفه ورهافته كالعذراء. كان لا يأكل أياً من الحبوب الخمسة إنما يستنشق الريح ويشرب الندى».

شرد هوي. أخذ يفكر في العذراوات اللّواتي عرفهن. اشتد شعاع الشمس على رأسه، فنقل بطانيته شرقاً بضع خطوات، وتمدد في فيء دغل الخيزران. كان الدغل ينفث موسيقى الريح المكتومة، وأغمض هوي عينيه، ورأى نفسه في غرفة مليئة بالحشايا، وفي وسطها بركة يترقرق فيها الماء. خرجت العذراء من البركة وتقدمت منه. كانت تشبه ياو. وتناهى إليه هدير الشلال.

هزّ هوي رأسه. نظر إلى ذراعه اليمنى، إلى الندبة التي تشقها من المعصم حتى المرفق. يحمل هذه الندبة منذ الطفولة. كان يتسلل مع ياو إلى مخزن الدار، حيث تحفظ الفاكهة المجففة، حين سقط فوق حافة منقل حديدي. ياو هو الذي نظف جرحه بخمرة التفاح. وبخيط حرير أصفر وبإبرة حمّاها على النار قطَبه. وهو ـ هوي ـ كان يبكي من الألم، دون صوت.

من جديد عادت الكلمات المقدسة تكرّ في أعماق جمجمته: كان تشين توو يكلم لين شو عن كلام الساحر، عن الكلام الذي سمعه بأذنه من فم الساحر: «لأنه ما أن يبدأ حتى يستمر إلى ما لا نهاية. وقد أجفلتني كلماته التي بدت لي بلا حدود مثل درب التبانة. كانت بعيدة عن الاحتمال وابتعدت جداً عن التجربة البشرية».

دار هوي برأسه صوب ياو النائم، ثم رفع نظراته صوب

صخور الجبل الشاهق، وصوب الثقوب السوداء ـ هذه هي الكهوف ـ العميقة في جدار الجبل الأصم، فأحس بالخوف. خوف يشبه موجة ماء دخلت في جميع فتحاته فجأة، في عينيه، في أنفه، في فمه، في أذنيه، في ذكره، وفي دبره.

قفز واقفاً، وركض حتى ياو النائم، ثم ركله في بطنه، كي يفيق.

في كهف الساحر

كانت الشمس قد تربعت في كبد السماء حين بلغا صفّ الكهوف الخمسة. أمام الكهوف تباعدت هنا وهناك فسحات من الزهور البرّية الصفراء والبنفسجية والحمراء. دلّ هوي بأصبعه على مجموعة من الزهور الصفراء الصغيرة النابتة بين صخرتين، وقال: «بابونج». ابتسم ياو الذي يعرف جيداً ولع صديقه بالأسماء ذات الرنين الموسيقي، ثم استدار، وتابع التسلق. كان يفكر أن هوي يجمع أسماء كثيرة داخل رأسه كي يحس بالألفة مع الأشياء.

فوق الكهوف الخمسة، على علو عشرين متراً تقريباً، يشحب لون الصخور، وتبدو مصقولة وملساء. هناك، على مقربة من القمة التي تشبه قبة رأس صلعاء، يوجد الكهف المسمى «كهف النار»، لأن الأسطورة تروي أن التنين كان يعيش في هذه الأعماق، في باطن الجبل.

التفت ياو، وسأل صديقه:

ـ أنت متأكد أن هذا هو الكهف الذي نبحث عنه؟

أجاب هوي:

ـ ماذا قال الحكيم لاو تسه في نشيده الثاني عشر؟

لم يجبه ياو، فأجاب هوي نفسه:

ـ الخمسة ألوان تعمي العين. الخمسة أنغام تصم الأذن. الخمسة طعوم تفسد الذوق. الطرد والقنص يخبلان العقل. النفائس تقود إلى الضياع. من هنا، فالحكيم مدفوع بالشعور لا بالنظر. تاركاً ما يراه لما يحس به.

سكت هوي. تابع الصعود إثر ياو. رفع ياو قدمه اليمنى وثبتها فوق صخرة مفلطحة، ثم استدار بينما يده اليسرى تمسك بجذر بنيّ عميق في شق الصخر، ومدّ يمناه إلى هوي قائلاً:

ـ استنتج مما أنشدت أننا قد خُبلنا، وأنه علينا الكف عن إطلاق الصّقور خلف الطرائد، وعن إرسال النبال خلف اللحم، وأنه علينا منذ الآن البحث عن مهنة أخرى.

ضحك هوي وهو يمسك بيد صديقه، ثم يشد جسده صعوداً، وقال لاهثاً:

ـ لا بد وأن الساحر استعان بحكمة الغابرين المقدسة كي يجد كهفه، فإذا تجاوزوا هم الخمسة ألوان والخمسة أنغام والخمسة طعوم، فإن الساحر قد استنتج أنهم كانوا يتجاوزون أيضاً الخمسة كهوف. فاللون يصدر عن كهف يدعى العين. والنغم يصدر عن كهف يُدعى الفم كي يقع في كهف يُدعى الأذن. وكذلك الطعوم مستقرها كهف الفم.

ابتسم ياو معلقاً:

ـ الغابرون كانوا دهاة، مبهمين، بعيدي الغور، مستجيبين.

وكان غور معرفتهم لا يُسبر(*). فكيف سبره الساحر؟

أجاب هوي:

- ولكن الساحر هو من الغابرين.

أمام مدخل الكهف وقفا. من الأعماق يأتي برد ورائحة طين. من الأعماق تزحف عتمة ذات وطأة. رويداً رويداً بدأت عين ياو تميز جدران الكهف وسقفه. لم يكن الكهف متسعاً. كان أشبه ما يكون بممر أو دهليز. ولم يكن عميقاً جداً. في خطوات معدودة يمكن الوصول إلى آخره. وحدق ياو جيداً فرأى الجسد المكوم هناك، آخر الكهف، وقد التف بأثواب سوداء، وجعل رأسه فوق كومة من التراب: كان الساحر - إذا كان هذا جسد الساحر فعلاً - ينام وقد أعطى ظهره لفوهة الكهف، وللسماء، ولهما.

أحس ياو بشيء يلمس كتفه فذُعر. كانت تلك يد هوي المرتعشة. عندئذ فقط اكتشف ياو أنه خائف، مثله كمثل هوي، وأن كل ذلك الضحك الذي ضحكاه، وهما يتسلقان الصخور إلى هنا، كان محاولة للتلهي عن الخوف.

من يتقدم الآن؟ نكس هوي رأسه، فخطا ياو الخطوة الأولى، ثم تشجع، فخطا ثانيةً، وثالثةً. لا بد أن هوي ما يزال في مدخل الكهف، واقفاً في الضوء، في نور الشمس، خلفه بمترين أو ثلاثة أمتار. التفت ياو كي يأمر هوي بالتقدم فوجد أن هوي يقف لصقه، وهكذا انتبه إلى الحقيقة الغريبة: لقد خطا إلى الأمام ثلاث

(*) النشيد الخامس عشر من كتاب «تاوتي تشنغ»، للحكيم لاو تسه، المولود في دويلة تشو، وقد عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

خطوات لكنه ما يزال في الخارج، في مدخل الكهف، في نور الشمس، ولم يتقدم قيد أنملة. نظر إلى هوي يسأله تفسيراً، ولما ظل هوي صامتاً منكس الرأس كالطفل المذنب، جرب ياو بمفرده من جديد: رفع قدمه اليمنى ورماها إلى الأمام، مسدداً نظرته إلى الجسد النائم في أعماق الكهف، ثم رفع القدم اليسرى ونقلها أيضاً. لكنه حين التفت وجد أنه ما يزال حيث كان، قرب هوي، في فم الكهف.

أخيراً تكلم هوي:

ـ ألم تفهم بعد؟ هذا كهف التنين. إنه موجود وغير موجود. هنا وليس هنا. يُرى ولا يُرى. فكيف نخطو إلى أعماقه دون أن ندخل إلى عالم آخر؟

هتف ياو:

ـ تقصد أن الساحر ليس في هذا العالم، أنه ميت.

قال هوي:

ـ الحكيم دوماً ليس من هذا العالم. العالم كثيف معتم، والحكيم خفيف نيّر. لكن الحكيم ليس ميتاً. إنه مثلي ومثلك صاحب بدن، وبدنه هناك، أمام أعيننا.

حدّق ياو إلى البدن الراقد آخر الكهف. رأى الظهر يرتجف، والأثواب السوداء تتموج. والرأس يتململ فوق كومة التراب. وتراجع هوي إلى الخلف خطوة، فمدّ ياو يمناه مسرعاً، وأمسك به من ردائه. التفت هوي إلى خلف. رأى الهاوية، وعرف أن كاد يسقط عن حافة الجبل.

كان الساحر ينهض، ملتفّتاً بأثوابه، وظهره ما يزال لهما. ورآه

ياو يوشك أن يستدير، لكن الساحر لم يستدر بل خطا بعيداً أيضاً، أبعد فأبعد، كأنه يريد الدخول في جدار الكهف، كما يدخل الفأر أو العنكبوت في شقٍ في الجدار. لكن الساحر لم يختفِ في الجدار، وإن بدا الآن غارقاً في العتمة، فكأنه ليس هناك.

رغم العتمة تبين ياو الخطوط التي تحدد جسده. لاحظ أنه طويل ونحيل، ورأى أن ظهره مستقيم، وخيل إليه أنه يبصر أصابع يديه. كانت العتمة تتموج الآن، كأجنحة طيور كثيرة، وأدرك ياو أن العجوز قد استدار، هناك، في أعماق الكهف، لأنه رأى نقطتين من الضوء الأخضر تتوهجّان قبالته تماماً، على علو الرأس. ثم سقطت نقطتا الضوء، واستقرتا على علو منخفض. وتناهت إلى ياو همهمة خفيضة، وحفيف أثواب تُرتّب وتُفْرَد، ففكر أن الساحر قد جلس أرضاً الآن. وبالفعل، رأى في اللحظة التالية يدين تمتدان من أعماق الظلمة وتمسكان بعود ملقى أرضاً ثم تُقلّبانه كما يقلب الولد لؤلؤة أو قطعة بلّور. حدّق ياو جيداً. رأى أن الأصابع التي تتلاعب بالعود اليابس طويلة ونحيلة، ولاحظ أن لونها، كلون الكف كلّه، رمادي مائل إلى الزرقة، وقاسٍ ومتجعد كما يكون جلد الفيل. عرف أيضاً أن قماشة الثوب سوداء لأنه رأى طرفي الكمين النازلين حتى المعصمين. وكان ذلك كل ما رآه: الكفين، والأصابع الطويلة ذات اللون الرمادي ـ الأزرق، وطرفي الكمين الأسودين.

كم ظلَّ واقفاً هكذا، وهوي قربه يرتعد، لا يعلم. لكنه حين جرَّبَ أن يتكلم أخيراً أدرك أن عضلة لسانه قد تجمدت، كما يتجمد الماء في فصل الشتاء، وكما يتجمد العجين القديم. أحس ياو بها ـ بعضلة لسانه ـ وكأنها سحلية ميتة مغروزة داخل فمه.

لكن هذا الإحساس الفظيع لم يجعله يتقيأ، أو يحس أنه سوف يتقيأ. لا، بدا ذلك طبيعياً جداً، ثم وأنه كان منشغلاً عن كل إحساس بالتفكير فيما سوف يحدث. هذا إذا حدث أي شيء. لأن ياو أحس للحظة عابرة أنه سيبقى على هذا الوضع إلى الأبد، وأنه ـ أخيراً ـ قد وصل إلى نهاية الحياة التي عرفها فيما مضى. فمنذ الآن لن تكون حياته سوى ما يلي: أي الوقوف هنا، والتّحديق إلى الأصابع ذات جلد الفيل وهي تتلاعب بالعود اليابس الذي لا يزيد طوله عن طول إصبع.

«ولكن هوي، ماذا حدث لهوي؟» كان ياو يتساءل. وفكر أن هوي أيضاً قد بلغ نهاية حياته القديمة. فمنذ الآن سيبقى هوي واقفاً إلى يساره كالصنم، ورأسه منكساً كراية جيش مهزوم (يعلم أن هوي يقف قربه منكس الرأس، بالحدس، وبالحدس فقط، ذلك أنه لا يستطيع أن يلتفت، أو أن ينظر ليتأكد، فالأصابع ذات جلد الفيل، تجذب نظراته، كما يجذب الحبل الغزالة من عنقها).

وتساءل ياو ماذا يفعل الآن. وحاول أن يتكلم لكن دون جدوى. عندئذٍ خطر له أن يجرب التقدم من جديد. فرفع قدمه اليمنى فإذا بها ترتفع، وخطا قُدماً، فأحس أنه هذه المرة قد تقدم بالفعل، لا في الخيال وحسب. وأراد أن يلتفت إلى الوراء كي يتأكد، لكنه قبل أن يفعل ذلك قال في سرّه: «لا، ما زلت حيث كنت، وإنما إحساسي خدعني». ثم التفت، فأدهشه أن يرى هوي على مسافة منه، في الخارج، وأدرك أنه الآن قد بات فعلاً داخل الكهف.

فرح ياو لانتصاره لكنه خاف أيضاً. فهو قد أصبح أقرب إلى

الساحر. ولكن، بالمقابل، فإن هوي ما يزال في الخارج. وفي تلك اللحظة سمع ضحكة خفيضة، وبينما يلتفت نحو مصدرها تكلم الساحر من ظلمته التي لا يُسبر غورها:

ـ لا تخف ياو.

ورفع الساحر ذراعه اليمنى، وسدّد إصبعاً نحو فوهة الكهف:

ـ وأنت أيضاً هوي، تقدم ولا تخف.

جلسا على بعد خطوات فوق الأرض الطينية، يتأملان أصابع الساحر، وبين حين وآخر يرتفعان بنظراتهما صوب الثقبين الأخضرين، حيث يقبع الرأس غير المرئي.

تكلم الساحر بصوت فتيّ:

ـ منذ ثلاث سنوات، أو ربما ثلاثين سنة، رأيتكما قادمين من برايا كوي جوين. تمتطيان الحمير المكدودة وتتحدثان عن السور العظيم. ياو يريد السفر خلفه، وهوي يحدثه بلسان لاو تسه العزيز قائلاً: من غير أن تسافر يمكنك أن تعرف الدنيا كلّها. من غير أن تُطلّ من النافذة يمكنك أن ترى دروب السماء. وبقدر ما تذهب بعيداً تعرف قليلاً. وهكذا، فالحكيم يعرف دون أن يسافر. ويرى دون أن ينظر. وينجز كل شيء دون أن يفعل.

صمت الساحر فأحس ياو بالبرد. فكر هوي أن الحرارة في كلمات العجوز (هكذا فكر هوي: «العجوز») كانت تبعث الدفء في بدنه. وأما الآن وقد سكت فإن البرد بات لاسعاً. الفكرة ذاتها كانت في رأس ياو.

انطلق الصوت الشاب من جديد:

ـ قال ياو: أذهب وأسأل الساحر في جبل كويي. لكن من قال لياو إن الساحر يريد أن يحدثه؟ من سمح لياو أن يقطع عزلة الساحر من أجل سؤال سخيف، عن سورٍ، أو عن منام؟

دبّ الرعب في قلبي ياو وهوي. الساحر يتحدث بلطف، وبنبرة ناعمة لا تتبدل، لكن كلماته مليئة بالخطر، مشبعة بالإرهاب، كأن الساحر يريد الأذية لهما.

تابع الصوت فجأة:

ـ لا تخافا. بقدر ما تزيد الكلمات تتلاشى. والسماع الحسن يكون بالقلب لا بالعقل. اسمعا النبرة واتركا الكلمات المجوفة تمضي إلى الهاوية. فالذي يعيش في كهف لا يريد الأذى لأحد.

حاول ياو تحريك عضلة لسانه فنجح. وجد نفسه يقول:

ـ أيها الجليل، لم نأتِ إلاَّ طمعاً في المعرفة. هل المعرفة خطيئة؟

أجاب الساحر:

ـ أحياناً تكون الخطيئة في السعي.

قال ياو:

ـ فقد أخطأت حين جعلت هوي يترك راحته وينهض ويسعى معي إلى هنا؟

قال الساحر:

ـ ربما.

فسأل ياو:

ـ لكن كيف يعيش الإنسان مع دودة في قلبه؟

أجابه الساحر بسؤال:

- ومن أخبرك أن هناك دودة في قلبك؟

ساد الصمت. من الخارج جاء صوت الجوارح وهي تعبر الفضاء. تذكر هوي أنه رأى أعشاش نسور وصقور بينما يتسلقان. كانت معلقةً عالياً فوق الصخور المدببة، كأنها توشك أن تقع عند أول هبة ريح.

قال الساحر:

- سأتحدث معكما بكلمات جميلة. منذ زمن بعيد لم أرَ وجهاً بشرياً، لَم أسمع صوت إنسان. نور الشمس حلوٌ، والإنسان حلو أيضاً. أحياناً أنزل الجبل، أمضي إلى نان غن، أو إلى سايان فو، وأقضي بعض الأيام عند راعٍ من الرعاة. أشاركه العمل، أسوق قطعانه إلى الهضاب، أقطَع له الحطب، أطبخ طعام أولاده، وأتكلم مع زوجته. ثم أقفل عائداً إلى هنا. اليوم جئتما إليّ، وهذا ليس سيئاً.

قال هوي بصوت مرتجف:

- قال الحكيم لاو تسه: الكلمات الجميلة ليست صادقة.

ضحك الساحر:

- قال لاو تسه العزيز أيضاً: المتعلمون لا يعرفون.

تلعثم هوي وسكت. كان يفكر أن الساحر قد قرأ أفكاره. ذلك أن هوي لفظ عبارته عن «الكلمات الجميلة» وهو يفكر في العبارة التالية أي «المتعلمون لا يعرفون»، فالعبارتان وردتا في نشيد واحدٍ قصيرٍ من أناشيد لاو تسه.

أدلى ياو بدلوه في الحديث، ونظرته مسددة نحو العود اليابس الذي ما فتئ يدور بين أصابع الساحر:

ـ الحكيم لا يحاول اكتناز الأشياء قط(*).

ساد الصمت مرة أخرى. هذه المرّة أحس ياو بأنه قد ربح. الساحر اقتنع. أحس بذلك في الهواء. في حركة العود الهادئة بين الأصابع. في اللون الوردي الخفيف ـ هذا لون الدم ـ الذي كسا ما تحت الجلدة القاسية التي تشبه جلد الفيل.

أخيراً تكلم الساحر:

ـ العزيز لاو تسه كان سيفرح لو حضر هذا الحديث. ختم كتابه بالقول: «تاو الحكيم هو العمل دون كد». ثم مات في هونان البعيدة متدثراً بغطاءٍ من الحرير. ثوبي أنا من القطن. القطن عمل الأرض، نبتة خرجت من تراب. الحرير عمل دودة القز. الدودة أكلت ورقة التوت لتصنع كهفاً من الحرير لنفسها، وليس لنا. لاو تسه كان يعلم هذا. لكن المرأة التي رأته محموماً لم تكن تعلم فغطّته بدثارٍ من حرير. هذا كل لباسي، قطن على جسمي ولا نعل في قدمي. النعل جلد والجلد من حيوان أو قماش والقماش يبلى في القدم أسرع مما يبلى في النار. وهكذا أنا. حفنة من غبار في ثوب من قطن. وأنتما تحسبان أنني الحكيم. أنني الساحر. ما هذا الساحر الذي يلبس الخشن ويأكل الدون ويعيش كما تعيش البهيمة والحشرات. طعامه قوت الحمير، وحياته نوم ونظر في العتمة. وتأتيان إليّ وتحسبان أن الجواب عندي!

(*) النشيد الأخير، في كتاب «تاوتي تشنغ».

أوشك ياو أن يضحك لكنه كتم ضحكته. هوي أيضاً أوشك أن يضحك. لأنهما معاً تذكرا مقاعد الدراسة، وما سمعاه، وما قرآه، عن طبيعة الحكماء. فكر ياو أن الساحر يقوم أمامهما بهذه اللعبة المكشوفة قصداً، لأنه مال إليهما، فكأنه أراد أن يربت على أكتافهما لأنهما حفظا الكلمات المقدسة في نشيد لاو تسه الخمسين: «الحكيم خشوع متواضع ويبدو أمام العالمين مشوشاً. ينظر إليه الأنام ويستمعون. أما هو فيتصرف مثل طفل صغير».

أطلق الساحر ضحكة. تكرر صدى الضحكة في الكهف. كانت كغرغرة طفل يلهو. تمنى ياو لو يكشح الساحر ستار العتمة عن وجهه فيرى ملامحه.

تكلم الساحر:

ـ الكلام ليس مجرد نفخ الهواء. الكلام مختلف عن سقسقة الطيور. الغابرون عرفوا هذا. فالمتكلم يريد أن يقول شيئاً. لكن ما يريد قوله لا يثبت إطلاقاً. أولاً لأن الكلام غامض وبدائي. ثانياً لأن الصوت يصمّ الأذن. فكيف أكلمكما الآن بغير الصمت؟ فقط أفعل. إسمعا: دخولكما عليّ في هذه الساعة قطع عليّ مناماً. كنت جالساً مع رجل، بيننا تراب وأعواد محترقة، وحولنا نور كهذا النور في الكهف. شككَت أنه لاو تسه ذاته، وأردتُ التأكد، فسألته: كيف ترسم مربعاً بلا زوايا؟ فأمسك عوداً وخط على التراب خلفه، حيث لا يصل نظري، بعض الخطوط، ثم قال لي: تعال وانظر! فوقفت وذهبت إلى حيث أشار بالعود ونظرت، فلم أرَ شيئاً، فسألته: لكن أين هو المربع؟ فأجابني: تكون الريح قد محت أضلاعه! فأجبته أن لا ريح في هذا الكهف، فقال: إذاً، هو

أمام نظرك، ولكن نظرك ضعيف فلا تراه. فأجبته أن نظري من القوة بحيث أنني أرى البعوضة الطائرة خلف سور الصين. فأجاب: إذاً، باتت الحقيقة واضحة: إن المربع الذي بلا زوايا لا يُرى بالعين البشرية، وإنّ خُط بيدٍ بشرية فوق التراب. فلما قال هذا عرفت أنه لاو تسه.

سكت الساحر لحظة، ولأول مرة ترك العود يسقط من أصابعه. بيده اليمنى جمع حفنة تراب، وجعلها تنزل في خيط رفيع فوق كفّه الأخرى المفتوحة. ثم تابع الكلام:

ـ لكن الحكيم لا وجه له. ما إن هتفت في وجهه: أنت لاو تسه، حتى قال: بل أنت لاو تسه. وأخذ يقنعني بأنني الحكيم والفيلسوف الكبير، السيد لي ثان المولود في دويلة تشو، والذي لُقب تشريفاً بـ «لاو تسه»، وقال إنني أنا من أسّس المدرسة التاوية، وأنني عاصرت كونفوشيوس، بل وكنت أكبره بستين سنة، وقال إنني قد مت قبل زمن بعيد، في هونان، ملفوفاً بالحرير، وأن المرأة التي دثرتني كانت المرأة ذاتها التي دأبت، طوال شهور، على إطعامي حساء القمح بيدها. عندئذ سألته، سألتُ أنا لاو تسه، من يكون هو إذا كنتُ أنا لاو تسه، فضحك وسألني كيف لم أعرفه، فهو يعبر مناماتي دوماً، ثم أضاف: أنا الرجل الروحاني الذي يعيش في «كهف النار» في جبل كويي، ولا يلبس إلاّ القطن، ولا يقرب إلاّ العشب طعاماً، فكيف لم تعرفني؟

في الصمت العميق الذي تلا كلام الساحر فكر ياو أنه قد بدأ يفهم: إن الساحر يجيبه على سؤاله الأول: إنه يخبره بما هو كائن وراء السور، ولكن بطريقة شبه خفيّة.

مرة أخرى بدا أن هوي يفكر في الأمر ذاته، إذ تكلم فجأة:

ـ ولكن، تلك الرؤيا. أعني، الشبح الذي هو أنا، وقد وقف مترنحاً ينزف في مدخل الكهف، وياو في الداخل لا يقدر أن يفعل شيئاً، تلك الرؤيا، ماذا تعني؟

من جديد بدأ الساحر يفرغ التراب من يدٍ إلى أخرى. كان الخيط ينزل متقطعاً. فكر ياو أنّ الخيط كان سينزل ناعماً وأجمل لو كان مصنوعاً من الرمل لا من التراب. (كان بالتأكيد سينزل متصلاً).

تكلم الساحر:

ـ جوابي على السؤال الأول لم يكتمل بعد. تحدثت عن السور الحقيقي، السور بين هذا العالم وعالم النوم والرؤى، فحذفت جانباً السور الآخر، على اعتبار أنه زائف ولا قيمة له، فهو يفصل بين أرضٍ وأرضٍ، بين الصين وباقي العالم، ولا يفصل بين أمرين يختلف واحدهما عن الآخر. لكن هذا الكلام ـ كمثل أي كلام ـ غير كامل. أنت هوي، قلْ لي، ماذا يوجد خلف السور المحيط بالإمبراطورية؟

تلعثم هوي. لم يكن مهتماً بأمر السور. كانت الدودة في قلبه الآن، تنهشه كأنه ورقة من التوت الطري. كان فقط يريد أن يعلم معنى تلك الرؤيا، ذلك المنام الذي رآه ياو، والذي بات الآن كأنه منامه هو، كأنه هو ـ هوي ـ من رآه.

أجاب ياو بدلاً عن هوي:

ـ خلف السور يوجد عالم آخر. لكنه هذا العالم أيضاً. أحد

التجار في كانتون، يستورد الفلفل في سفنه عبر البحر الجنوبي من جزيرة جاوه، جاء إلى مدينتنا، ليشتري جلود نمورٍ وببورٍ وفهودٍ وأوشاقٍ، وغزلان، وتكلم معي. أخبرني أنه في جاوه عرف ملاحين وتجاراً قطعوا المحيط الهندي ـ بسفنٍ حمّلوها بالفلفل وجوزة الطيب والخلنجان والقرنفل والكبابة الصينية وأصناف العقاقير ـ حتى وصلوا إلى الأرض التي وراء السور. هناك رأوا ـ وأحياناً لمسوا لمس اليد ـ قبوراً ضخمة توجد بداخلها أمتعة وأطعمة تكفي لمدينة صغيرة. وفي هذه القبور تُدفن الملوك المسماة «فراعنة». ورأوا أيضاً جبالاً مصنوعة من الجليد تطفو فوق الماء في أقصى الشمال. وشاهدوا حيوانات تشبه الببور لكنها أضخم منها وتُسمى «أسوداً».

صمت ياو فجأة. «ما جدوى هذا الكلام؟» كان يسأل نفسه. وقال في سرّه: «هذا حقاً نفخ هواء».

تكلّم الساحر:

ـ شكراً ياو، اليوم جعلتني أرى صوراً لم أرَها من قبل. والصور حلوة، مثلها كمثل نور الشمس. أحببت الحيوان الذي يسمونه الأسد. أحببت أيضاً القبر الذي يشبه مدينة والذي يعيش في داخله شخص واحد فقط، شخص تقول لي أنه يُدعى «فرعون»، وأنه يكون ميتاً. أحببت أيضاً التلال الثلجية التي تطفو فوق صفحة الماء كما يطفو البط والأوز. أتعلم يا ياو كم أريتني من صورِ اليوم، أنت الذي لم تعبر السور.

ظل ياو صامتاً، لا يفهم: هل يهزأ الساحر منه، أم هو يشكره فعلاً؟

أردف الساحر:

ـ وربما كان السمندر أيضاً يعيش هناك، وراء السور. ربما كان يرتع داخل قبر ذلك «الفرعون»، من يعلم؟ هوي!

نظر هوي إلى البريق في عيني الساحر، وتكلم ضارعاً:

ـ أخبرني عن الرؤيا التي رآها ياو. لماذا لا تخبرني؟

خيّل لهوي أن البريق في الثقبين الأخضرين قد نال منه الوهن فجأة. في اللحظة التالية غاب البريق تماماً. وأخذت العتمة تزحف على الثقبين اللامعين ـ كما عيون الهررة أو الضباع أو النمور ـ وتمتصهما إلى عمق الظلمة القاتمة، الكثيفة، الباردة كالموت.

هتف ياو:

ـ لا تذهب.

لكن الساحر ترك حفنة التراب تسقط أرضاً، ثم سحب يديه إلى الوراء، إلى حيث لا تصل أبصارهما، وتراجع.

وسمعا صوته يتلاشى:

ـ ما أنا إلاّ حفنة من غبار. لحظة وتملأ ثوباً. لحظة ويبدّدها الهواء. فاذكرا.

الصحراء

ذاب جسد الساحر في الظلام كما يذوب الملح في الماء. وإذ تلاشت حرارة جسده واضمحلت غزت الكهف برودة مخيفة. كأن الظلام قد أخذ يتحول إلى ثلج أو جليد.

جذب ياو هوي من ثوبه وجرّه نحو فوهة الكهف. قبل أن يصل إلى الفوهة رأى ياو أن النور في الخارج كان ما يزال أبيض مشعاً، فكأن الشمس ما تزال متربعة في كبد السماء، وكأنهما لم يدخلا إلى الكهف إلاّ قبل لحظة. لكنه ما إن وصل إلى فوهة الكهف حتى أدرك أن بصره قد خدعه. فالفضاء لم يكن أبيض بل برتقالياً ـ أصفر. والشمس لم تكن فوق، في قبة السماء، بل تحت، في الأفق، تغيب تدريجياً، وغيوم صغيرة سوداء تعبر قرصها الأحمر فترسم فوق وجهه ثقوباً، ثم تتابع الرحيل، ويرجع القرص الأحمر كاملاً، بلا أية ثقوب.

أخذا يهبطان الجبل. كان البرد قد اشتد، وبدا هدير الشلال متعاظماً. وجاءت الريح من أعماق الوادي، وصفعت الجبل بقسوة. فاختبآ خلف بعض الصخور. حولهما نباتات شوكية، وعلى بعد خطوات حفرة مدورة من التراب، غطّتها أعشاب خضراء قصيرة، وبعض زهيرات البابونج. لم ينظر هوي نحوها.

كان يحدّق أرضاً، وعضلات وجهه ترتجف. سمع ياو صوت الذئاب. عواء طويل ومستوحش. لم يكن الصوت بعيداً، وتلمس ياو بحركة لا إرادية الخنجر تحت ثوبه، وفكر في القوس وفي النبال التي تركها تحت، قرب الحمير.

تابعا الهبوط. رأى ياو أن الغيوم التي تعبر السماء الزرقاء القاتمة كانت تشبه التنين في أشكالها. رأى الرأس، والجسد الطويل، والأطراف. كان التنين رمادياً، على جوانبه خطوط وردية وحمراء. طار التنين مع الريح، متمهلاً، سارحاً كالباشق، لا يخفق جناحاً، ولا يعلو أو يهبط، كأنه يسبح في الماء. مضى التنين إلى الأفق. التحقت به حيوانات أخرى عديدة، وتبين ياو بينها طائر العنقاء بألوانه المدهشة التي تشبه مروحة الطاووس، وبأقدامه الثلاث ذات مخالب الصقور. انفصل الطائر إلى طائرين، وفكر ياو أن الأكبر هو «فنغ»(*)، وأن الآخر «هوانغ»(**). كانت الأنثى تلاحق الذكر. فنغ يسعى نحو قرص الشمس الأحمر القاني، وهوانغ تحاول النزول على ظهره الملون بأضواء عكستها سماء الغروب. تذكر ياو مطاردات الأوز البري في البحيرة خلف كوي جوين. كان «فنغ» قد بلغ الشمس، وقد بدا أصغر حجماً، وأرق عوداً، بحيث بات في مستطاعه الدخول في لهبها والتلاشي. وأبصر ياو الريح تدفع هوانغ جانباً، فتعبر بمحاذاة الشمس، وتبتعد شمالاً، ثم تضمحل في عتمة الأفق.

رأى ياو حيوانات أخرى تتدافع في السماء التي بلا حدود،

(*) الذكر، ويسكن الشمس.

(**) الأنثى، ودأبه ملاحقة «فنغ» للالتصاق به قبل بلوغه الشمس.

رأى النمور المخططة، ورأى الحيوانات المقدسة: عنقاء أخرى، وسلحفاة نهرية، وتنيناً أيضاً. لكنه لم يرَ رابع الحيوانات المقدسة. بحث عنه في السماء، أيضاً وأيضاً، ولكن دون جدوى. فالتفت صوب هوي قائلاً:

ـ لا أستطيع أن أرى وحيد القرن، هل رأيته أنت؟

بدا أن هوي لم يسمعه، لأنه لم يرفع وجهه صوبه، بل ظل محدقاً إلى الأرض، وهو يهبط مسرعاً، بين الصخور، والحصى تتدافع تحت قدميه، وتتدحرج نزولاً. كانا قد وصلا إلى السفح الآن، والمساء يُقبل. رأى ياو الحمير تتقدم وتتراجع، وتنهق، وتنظر صوبه كأنها تنتظر وصوله. فكر أن الرياح التي ينفثها دغل الخيزران قد ضربت أعصاب الحمير، بصوتها الذي يشبه فحيح الثعابين.

حين انطلق صوب الدغل ليجمع بعض الأعشاب اليابسة، هتف هوي:

ـ أين تذهب؟

قال ياو ملتفتاً وهو يتابع سيره:

ـ أجمع حطباً للنار.

هز هوي رأسه وقال لا، نمشي الآن فوراً. أخذ يفك الأرسنة وينقل السلاح إلى ظهور الحمير.

نظر ياو صعوداً فرأى أن سماء الليل ستكون صافية وبلا غيوم. كانت نجمة المساء تلمع. والمجرة تتلألأ في العميق العميق كأن أحدهم قد رمى ستارة فوقها. استدار ومشى صوب هوي والحمير.

بينما ينطلقان التفت ياو. كان رماد النار التي أوقداها ظهراً ما يزال ساخناً. رفع رأسه، شم رائحة الشواء كأنها ما تزال معلقة في الفضاء، وكان يعلم أن الريح قد كشحتها بعيداً مع دخان النار قبل ساعات، وأن الرائحة التي شمها الآن هي رائحة اللحم التي علقت بثوبه وبشعره.

رفع رأسه أيضاً. تأمل جدار الجبل وقد تدثر بغطاء السماء، ورأى الثقوب الخمسة، والثقب السادس الذي يعلوها. خيل إليه أنه يرى حركة في أعماقه، في أعماق «كهف النار». وتساءل هل عاود الساحر الظهور بعد مغادرتهما لكهفه.

قطعا الصحراء في تلك الليلة منطلقين نحو نان غن. كان ياو يقود الدرب، فقرر أن يمضيا إلى نان غن لأنها مسيرة ليلة واحدة من جبل كويي. كان متعباً جداً ويريد فرشة ينام عليها دون أن يفكر في الضواري وأحوال الطقس. وفي سرّه فكر ياو أيضاً: «هوي لا شيء يلهيه عن نفسه إلاّ الغواني. وفي نان غن سيجد الكثير منهن».

وأما هوي فكان غارقاً في الصمت. بين حين وآخر يلتفت ياو صوبه، محاولاً أن يفتح حديثاً، لكن الوجوم الثقيل الذي حام حول هوي كغيمة من البعوض، جعل الكلام معه أمراً مستحيلاً. تذكر ياو مسيرتهما إلى الجبل طوال النهارات والليالي السابقة، تذكر وجومه هو، ومحاولات هوي للكلام معه، وقوله مستعيناً بالكتب المقدسة: «ما هذا؟ أيمكن لجسدك أن يكون كالخشب اليابس، والذهن كالرماد الخامد؟ الرجل الراكب مطيته ليس هو

الذي كان هنا من قبل». وقال ياو لنفسه إنه إذا كان قد خرج من وجومه الآن ـ أو بدا كذلك ـ فهذا وهم وخيال. لأن قلبه ثقيل كصخرة تهوي في البحيرة. لأنه ـ مثل هوي ـ بات يعلم معنى الرؤيا التي جاءته في ظلام تلك الليلة، قبل أسبوعين تقريباً، حين كان مع هوي في البرية، يناممان قرب نار صغيرة. فإمتناع الساحر عن تفسير الرؤيا جعل تفسيرها واضحاً جداً: هوي سوف يموت.

نظر هوي نحو ياو وسأله:

ـ لكن لماذا لم يتكلم. أي شخص كان يمكن أن يفسر لنا المنام بأن رؤيتي أنزف دماً تعني أنني مقبل على الموت. فلماذا رفض أن يقول ذلك؟

احتار ياو ماذا يجيب، فظل صامتاً. في أيام الدراسة كان معلمهما هواي نان المبجل يبدي دوماً إعجابه بهذه الخصلة التي تميز ياو عن أقرانه: فهو يلجأ إلى الصمت إذ يقع في الحيرة، فيبدو صمته أبلغ جواب على أي سؤال إطلاقاً. وأما أقرانه فيلجأون إلى اللعثمة، وإلى إطلاق ألسنتهم على غاربها، ما أن يقعوا في الحيرة، فإذا بهم أشبه ما يكونون بالقرود التي لم تتعلم النطق أبداً لأنها أبت أن تنزل عن الأشجار.

خلفهما كانت الريح تمحو آثار الحوافر على الفور. رأى ياو ضوء النجوم يلمع على ظهور السحالي، بعضها متجمد كالحجارة، وبعضها يعبر بلمح البصر، يختفي في العتمة، أو بين شجيرات الشوك. كانت الصحراء تمتد في جميع الاتجاهات وتبدو في إتساع

السماء ذاتها. بعد ساعات ظهر ضوء في الأفق، في الشمال، إلى حيث يسعيان. لكنه ما لبث أن اختفى.

هنا وهناك تباعدت برك ماء وسط الرمال. كانت رؤوس الحمير تتجه إليها، والألسنة تخرج من بين الأفكاك، فيهرع ياو ويجذب الأرسنة ناهراً الحمير. لأن الماء المشبع بالملح، والأخضر بلون العشب، يورث الغثيان إذا شربه إنسان، والإسهال إذا شربته الماشية. فماء الصحراء الراكدة يتشبع بسلفات الحديد حتى يتحوّل إلى سم حقيقي. (ذات مرة، شرب من هذه المياه، فوجدها مُرَّةً جداً ومالحة في الوقت نفسه).

سمع هوي يقول:

ـ هل سمعت؟

فسأله:

ـ ماذا؟

رفع هوي إصبعاً إلى فمه يأمره بالسكوت. أصغيا: صوت الريح فوق الرمل، موسيقى الأفلاك، الكواكب التي تدور على محاورها، أنفاسهما، لهاث الحمير، وقع الحوافر الهادئ المنتظم، و... ماذا أيضاً؟ خيّل إلى ياو أنه يسمع شيئاً آخر، بلى، هذا صوت صنوج.

قال هوي:

ـ ليس قرعاً لإعلان الساعة والوقت، أليس كذلك؟

فهمز ياو حماره وقال بحماسة:

ـ رأيت وهجاً قوياً قبل قليل. بدا هناك في المدينة.

همز هوي أيضاً حماره، وأسرعا. كان صوت الصنوج يعلو ويقوى.

الحريق

ربطا الحمير إلى قوائم الجسر الخشبي. من تحتهما، من الخندق المائي، تعالى نقيق الضفادع. هرعا عبر البوابة الكبيرة إلى داخل المدينة. من جميع الجهات جاء الصراخ. النساء يتدافعن مع الأولاد. الكلّ محمل بالثياب والأواني والجلود. الأغنام تسدّ الطرقات. ورائحة الدخان والخشب المحترق تغطي الفضاء والوجوه، كأن السماء قد أمطرت على المدينة مطراً أسود وكبريتاً.

كانت نار هائلة في قلب المدينة تضيء البيوت والشوارع. البيوت معظمها من طابقين. في الأسفل الدكاكين والمتاجر، وفي الدور العلوي المساكن. رأى ياو أنّ الحراس الراكضين بسطول الماء كانوا قد نجحوا في حصر الحريق ضمن دائرة، وجعلوا من الشوارع المحيطة ببقعة النار خط مواجهة لا يتزحزح. فقد شكلوا دائرتين، وجعلوا يتلقفون السطول من دائرة ثالثة، خارجية ومتحركة، تملأ السطول من خزانات الماء المنتشرة في أرجاء المدينة، ثم تُسلِّمها إلى دائرة الحراس الثانية، الذين بدورهم يهرعون بها إلى دائرة الحراس الأولى، وهي الدائرة الأقرب إلى النار. ورأى ياو الماء ينزل فوق النار، والسطول تفرغ فتستعيدها الدائرة الثانية، وتطير السطول في الفضاء، وتحط في الدائرة

الثالثة، التي تتحرك من جديد، وبسرعة، نحو خزانات الماء.

التقط ياو سطلاً فارغاً وركض نحو خزانات الماء. رأى المزيد من الحراس يأتون من جهة القصر، مُحَمَّلين برقع جلدية، وبفراء قديمة عولجت بمعجون يمنع احتراقها. ملأ سطله، وكان هوي قربه يملأ سطلين معاً. ركضا عائدين نحو اللهب، يتصادمان بالأجساد المتدافعة. المكان كلّه يطنّ كقفير النحل. الأخشاب المحترقة تطقطق. والبيوت المبنية من قصب الخيزران تفرقع مصدرة دوياً هائلاً يصم الآذان. رأى ياو الحراس، حملة الجلود والفراء، يخترقون الدوائر الثالثة والثانية ثم الأولى، ويدخلون وسط النار. يخبطونها بالرقع، ويقفزون ويصرخون. رأى أيضاً رجلاً في ثوب ممزق يرمي بعصاه جانباً، ويجذب رقعة مرمية بين الأقدام، منطلقاً بدوره إلى وسط النار، نحو بيت وصلت النار إلى أعلاه فخرجت ألسنتها حمراء وصفراء من نوافذ دوره العلوي، تنطح العتمة وتجرحها مندفعة نحو السماء. كان الرجل صاحب الثوب الممزق يقفز كالأخوت، ويبدو كأنه يطير، فكأن الرقعة الكبيرة التي يحملها قد تحولت إلى جناحِ جبارٍ يجذبه صعوداً ويرمي به فوق الألسنة. وفكر ياو أن هذا الرجل يستطيع ـ إذا شاء ـ أن يطير.

نهره هوي فانتبه أن النار قد وصلت إلى خفيّه فتراجع مذعوراً ورمى السطل على قدميه. وضحك هوي ودفعه، وركضا من جديد نحو خزانات الماء.

رأى ياو المزيد من الحراس يهرعون من جهة القصر. في أيديهم مفاتيح حديدية طويلة عرف أنها مفاتيح الأبراج(*) الحجرية.

(*) أبنية مستديرة فسيحة الداخل تستخدم مخزناً للبضائع.

راقب تدافع الأهالي المحملين بالأثواب والقدور والحشايا وأنواع القماش والجواهر والعقود. الحراس ككلاب القطيع، والأهالي كالأغنام، والكلّ يسعى إلى حماية الأبراج، إلى الفرار من ذئب النار الفظيع.

دفع هوي أحد الرجال صارخاً في وجهه. فكر ياو أنه يملك أغرب صديق في العالم: كان هوي يقاتل الجميع كي يملأ سطليه بالماء، ثم يملأ سطل ياو، وبعد ذلك يلتفت نحو الرجال كأنه يقول لهم: «الآن املأوا سطولكم»، ثم يضحك لياو ويركض. فيركض ياو. الأغنام والبقر والحمير ترتطم به، والماء يندلق من سطله. سمع فرقعة مرعبة. أدرك أنه سقف آخر من سقوف البامبو(*). ورأى فيما يقترب من ألسنة النار ذلك الرجل نفسه، الرجل صاحب الثوب الممزق، يخرج من قلب الجحيم، من داخل بيت خشبي يتهاوى، وقد حمل على كتفه امرأة. رمى الرجل المرأة عن كتفه، وكان يسعل، ثمّ رآه يستدير ويقفز في أعماق النار من جديد.

رمى ياو ما في السطل فرأى أنها كانت نقاطاً قليلة وحسب، وضحك، والتفت صوب هوي، فلم يرَه. استدار برأسه صوب البيت الذي دخله الرجل صاحب العصا والثوب الممزق، فإذا بنظراته تقع على شبح هوي وقد خلع عنه الثوب والحزام، ورمى الخنجر أيضاً أرضاً، وهمّ بالدخول.

قفز ياو إثره. لكنه لم يلحق به. كانت الأخشاب المشتعلة في

(*) قصب الخيزران، ويُدهن بطلاء خاص يمنع عنه البلل، ويُقطع عند العِقَد، ويُشق إلى قسمين متعادلين، ثم يُربط بعضه إلى بعض بخيوط الحرير.

كل مكان. قفز ياو فوقها. لسعته النار. لسعت وجهه، حرقت شعره، لحست باطن قدميه، وثقبت خفّيه. قفز ياو صارخاً. دخل في عتمة الدخان، وهو يجذب ثوبه ويغطي فمه وأنفه. في الداخل كانت الرؤية مستحيلة. توغل في الدخان أكثر فرأى إطار نافذة وبقايا ستائر شبّت فيها النيران، وطاولة مع كراسٍ حالت إلى قطع سوداء. سمع صوتاً وراءه. نظر فرأى السلالم الخشبية، والنار مشتعلة في درابزينها الخشبي. رفع رأسه فأبصر هوي يقفز، وخلفه الرجل صاحب الثوب الممزق. كانا يسعلان ويضحكان. أمسكا به من ثوبه، وانطلقوا معاً إلى الخارج.

فكر ياو حين خرج أنه قضى في الداخل دقائق تشبه الساعات. لأنه ما إن وجد نفسه وسط الدائرة الأولى من الحراس حتى لاحظ أنهم توقفوا عن القفز وإلقاء سطول الماء. وسمع الهمهمة، والناس يشكرون السماء، فعلم أن النار قد حوصرت أخيراً، وأن أحداً لم يمت. فقط العجوز التي أخرجها الرجل صاحب الثوب الممزق احترق وجهها وبعض صدرها. وعدا هذا فإن معظم الحروق كانت سطحية: امرأة أحرقت يديها وهي تحاول إنقاذ بعض القدور، وأخرى كادت تحترق وهي تطفئ بعض الستائر المشتعلة، ورجل حاول أن يدخل إلى بيته المحترق ليبحث عن خناجر تركها له أبوه الميت فاحترق ثوبه. وهكذا. (ويضحك أحدهم قائلاً: «من أجل الخناجر كاد يلحق بأبيه»).

وجاء نائب الحاكم من القصر، وخلفه رجل قوي الصوت أعلن أن على كل من خسر بضاعة أن يُبلّغ عن خسارته في صباح الغد، وأن على كل من لجأ ببضاعته إلى الأبراج الملكية أن

يستلمها من جديد في صباح الغد أيضاً، وإلاَّ توجب عليه أن يدفع أجور المخزن كأي تاجر آخر.

وجذب هوي ياو، فتبعا صاحب الثوب الممزق، وأخذا يساعدانه في البحث عن عصاه.

الراعي

سألهما بينما ياو يمدّ العصا إليه من أين جاءا وأين سيبيتان في هذه الليلة. أجابه هوي بابتسامة، ففكر ياو ـ الذي رأى الابتسامة ـ أن تعارفاً فريداً قد تمّ وسط النار بين هوي وهذا الرجل الذي تغطي وجهه التجاعيد رغم أن الفتوة في جسده توحي أنه لم يتجاوز عامه الثلاثين. حدّق ياو إلى عينيّ الرجل. كانتا بلون الفحم، تشعّان بألقٍ طفولي. تكلم هوي:

ـ هذا ياو، صديقي وأخي. وهذا تشن كو، الراعي.

دعاهما الراعي إلى قضاء الليلة عنده. قال إنه لا يعيش في بيت، إنما يعيش في الزريبة مع أغنامه، خارج أسوار المدينة. وقال إن معظم الرعاة هنا يملكون بيوتاً داخل الأسوار، لذا فهو الوحيد بينهم الذي يُدعى «الراعي» ويجهل معظم الناس اسمه. وضحك وقال إن هذا قد يكون أفضل.

سأله ياو إذا كان يعرف المرأة العجوز التي أنقذها من النار. فقال الراعي إنه بالفعل يعرف إبنيها، وهما من أصدقاء أولاده. وكلهم لا يعيشون هنا منذ سنوات بعيدة، بل في كانبالو عاصمة

الإمبراطورية. قال الراعي إن بيان ومنجان، أي ابني العجوز التي احترقت، هما الموظفان الرئيسيان المسؤولان عن الصيد الامبراطوري، وأن أولاده الخمسة تحت أمرتهما، يعملون في تمرين ألفي كلب صيد، ويعاونهم في ذلك مئات الرجال. وضحك الراعي وقال إنه سيحكي لهما عن الإمبراطور والصيد بينما يشربان الشاي ويرتاحان.

قاطعه هوي:

ـ لكنني أتضور جوعاً.

فقال الراعي:

ـ يقول المثل: من الأفضل لك أن تُحرم من الطعام لثلاثة أيام من أن تُحرم من الشاي ليوم واحد.

كانوا قد بلغوا الجسر. خلّصوا الأرسنة وساروا شرقاً نحو حافة الغابات. كانت رائحة الدخان في الجو، والهرج ما يزال مستمراً داخل المدينة. قطعوا بعض التلال. كان ياو يعرج من قدمه اليسرى. سأله الراعي هل لحستها النار، فهزّ ياو رأسه إيجاباً، فعرض الراعي ذراعيه أمامه. وشاهدا كيف احترقت الجلدة، من الكتف حتى المعصم. في ضوء النجوم الأبيض كالثلج، بدت الجلدة حمراء فكأنها مطلية بصباغ الأرجوان.

قال الراعي:

ـ عندي زيت سمسم، لا تخف. أيام قليلة وتنسى أن قدمك كانت محروقة.

نزلوا بين صخور سوداء، وعبروا مرعى فسيحاً، ثم صعدوا هضبة أخرى، فأشرفوا على الزريبة، وعلى خط الغابات الممتدة خلفها. جاءت الريح من جهة الغابات، فغمرتهم رائحة التنوب، ثم تلاشت رائحة الغابة، وفاحت رائحة الزريبة. لهاث الأغنام، وصوفها، وقاذوراتها. خلّص الرعي الرتاج، دخل، ودخلا خلفه.

إلى اليسار تكومت الأغنام بعضها لصق البعض فوق مساحات القش والتبن وأعواد البرسيم. في آخر الزريبة نامت البقرات السوداء والبيضاء. رفعت بعض الأغنام رؤوسها. كان ضوء النجوم النازل من الكوى والنوافذ المرتفعة يضيء الفضاء حولها، ورأى ياو خروفاً صوفه أصفر كالذهب، وفي عينيه تسبح زرقة السماء.

مدّ الراعي ذراعه وأغلق الباب، ثم دعاهما إلى الجلوس. إلى اليمين كانت فرشة مطروحة على الأرض، وفوقها غطاء. وفي الزاوية القريبة مجموعة أخرى من الأغطية، وطاولة خشبية، وأباريق وأكواب وقدور. جذب الراعي منقلاً حديدياً من تحت الطاولة، وبدأ يشعل النار. انطرح هوي على الفرشة، فلحق به ياو.

في ضوء المنقل الخفيف، ونور النجوم النازل من الكوى والنوافذ وثقوب السقف الكثيرة، رأى ياو أن الهمّ والغمّ قد تركا وجه صديقه، وأن هوي قد استعاد روحه المرحة ونسي حكاية ذلك المنام. وسأل ياو نفسه: «أفي هذا اليوم نفسه، أقبل ساعات فقط، وفي صباح مضى قبل قليل، جلسنا مع الساحر، وفزعنا لأنه

لم يُجب على سؤالنا الأهم؟».

ملأ الراعي إبريق الشاي ماءً، ووضعه فوق المنقل. أخرج قارورة مخبّأة من حفرة في الجدار، وقال لياو «إخلع خفّك». حين تخلص ياو من خفّه، أفرغ الراعي زيتاً من القارورة في يد ياو، وقال:

ـ امسحها جيداً حتى لو آلمتك.

استدار الراعي، وأخذ يدهن ذراعيه، متكلماً:

ـ في كانبالو يصنع أطباء الإمبراطور عقاقير معقدة جداً. وفي العقاقير الخاصة بالحروق يمزجون زيت السمسم بألف نوع وصنف من نقيع النباتات الطبية وزيوتها. وكل ذلك لا حاجة له. لأن زيت السمسم وحده يكفي ويزيد. لكن الإمبراطور لا يفهم هذا. ربما لأنه مصاب بالنقرس. والنقرس يتسلق مفاصله حتى رأسه فيعجز عن التفكير. ربما. لكنه لا يعجز عن الصيد. كلّه ورم فكأنه عاش حياته يشرب الماء المالحة لا الماء المطيبة بالسكر وماء الورد. وبالكاد يستطيع أن يتقلب في فراشه. أقصد، بسبب النقرس وورم المفاصل، لا بسبب زحمة العذراوات من حوله، ورغم كل هذا تجده مصراً على تمرين آلاف الكلاب ـ بل والفهود أيضاً ـ والخروج بها حتى هضبة التيبت، والهملايا، مصطحباً آلافاً من مدربي الصقور. وهو، فوق الأفيال، في هودجه الحرير، يأمر فيطاع. أفلتوا الصقور فتطير الصقور. الصقور تتقلب في الفضاء، وهو يتقلب فوق الحشايا وسط الهودج الخشبي المغطى بالحرير من الخارج والداخل، حرير موشّى بالذهب يُدعك تحت جسد

الإمبراطور بينما عيناه تلاحقان الصقر المنقض على الكراكي(*).
وحين يتعب الإمبراطور يحملونه عن الهودج، وينصبون له السرادق، ويفرشون الأرض بجلود الببور والنمور، ويثبّتون الأعمدة الخشبية في الوسط، الأعمدة المحفورة والمموهة بالذهب، والتي يحملونها على ظهور الأفيال خصيصاً لهذه اللحظات. إلى هذه الخيمة الكبرى تتقاطر نساء الإمبراطور، يرفلن في الحرير، في الذهب وأصناف الجواهر الثمينة. والإمبراطور، الذي أنعمت عليه السماء بالنقرس، ينظر من نافذة الخيمة إلى بحيرات وأنهار، ويحلم بأنه صقر، بأنه يطير فوق اللقلاق والبجع ومالك الحزين، وينقض على أسماك الشبوط السابحة تحت صفحة الماء الملساء، أو القافزة نحو الفضاء لالتقاط حشرة عابرة. والحاشية تصخب حوله، فيرفع يده، فيسود صمتٌ عظيم. من يتكلم الآن يقطع رأسه. لماذا؟ لأن الإمبراطور حزين، ولا يريد أن يسمع صوتاً واحداً. ولا همسة. الخليلات يكتمن الكلمات في صدورهن العامرة. والوزراء يحلّ عليهم الوجوم. لأنهم يخافون مزاج الإمبراطور. وعندئذٍ ماذا يطلب الإمبراطور؟

سكت الراعي. استدار نحو ياو وهوي. رمى أوراق الشاي الأخضر في إبريق الماء الساخن. كانا ينتظرانه كي يتابع كلامه، وابتسم الراعي إذ لاحظ تركيزهما، وسأل مجدداً:

(*) نوع من الطيور.

ـ ماذا يطلب الإمبراطور؟

فاحت رائحة الشاي الأخضر، فانتبه ياو وأجاب:

ـ يطلب شاياً طبعاً.

ضحك هوي، وقال أنه يريد أن ينام فنهره الراعي:

ـ لا تنم. الدخان الذي ابتلعته يتحول الآن إلى بلغم في صدرك. وحده الشاي يقدر أن ينظّف جسمك الآن. قمْ!

اعتدل هوي جالساً. قام الراعي وجلب البطانيات من الزاوية وفرشها حول المنقل، ثم رمى نفسه أرضاً. كانت الجمرات تتوهج في المنقل، وشعاعها ينعكس على ذراعي الراعي المطليين بالزيت. وتذكر ياو ـ هكذا، فجأة ـ أنه وهوي لم يعرفا أباً أبداً، وسأل نفسه: «ماذا يحدث إذا بقينا هنا، من الآن وصاعداً؟».

تكلم الراعي وهو يسكب الشاي في الأكواب التي تشبه الصحون:

ـ أنتما صيّادان إذاً. وتصيدان نموراً بالنبال، وكراكي بالصقور. والجلد تبيعانه لتجار مدينتكما. ماذا قلت أنها تُدعى؟

كان الراعي ينظر نحو هوي، وابتسم ياو لفكرة أن الراعي قد تحادث وسط النيران مع هوي، وسمع هوي يجيب:

ـ كوي جوين.

فقال الراعي:

ـ سمعت باسمها لكنني لم أرها قط. أولادي رأوا كل مدن الإمبراطورية تقريباً. وصلوا إلى الحدود الشمالية، إلى أقاليم الظلمات، حيث الليل يستمر نصف سنة دون توقف. وأما أنا فلم

أغادر هذه البرّية قط. المدينة والصحراء والغابات. هذه هي حدودي. والنهر(*) طبعاً. غير مدينة نان غن لم أدخل في حياتي. في مرة واحدة، قبل سنوات، بعت قطيعاً من الأغنام المريضة لرجل من سايان فو. لكني لم أعبر بوابتها. بعته القطيع على الجسر، أمام المدينة. كان تاجر جلد، وصوفها كان ما يزال في حالة حسنة.

كان ياو يحسّ بالدعة تغمره. الشاي الساخن الذي ينزل في حلقه، الفرشة الطرية تحت مؤخرته، جدار الطين الذي يستند بظهره إليه، الحرارة المنبعثة من جمرات المنقل، ضوء النجوم النازل من ثقوب السقف، الأغنام والأبقار النائمة في سكينة فوق القش الأصفر على بعد خطوات، صوت العجوز الأليف والمحبب، جسد هوي الهادئ والقريب منه، النسيم الضعيف الذي يهبّ في الخارج ويصفع الباب برفق ويهزّه، صوت المياه التي تغلي في الإبريق، كل ذلك كان يغمره بسكينة لا متناهية.

فجأة، من حيث لا يدري، كسر هوي كل هذا السكون، إذ قال:

ـ سأخبرك كيف وصلنا إلى هنا، فربما تساعدنا. قبل أيام رأى ياو في المنام أنني أنزف في مدخل كهف، وأنه هو يجلس في أعماق الكهف، ولا يقدر أن يساعدني. المنام أفزعنا. فقررنا أن نأتي إلى الساحر الذي يعيش في جبل كويي ونسأله عن معنى هذه الرؤيا. والبارحة صباحاً صعدنا إلى «كهف النار». وتحدثنا مع

(*) نهر كيانج.

الساحر. تحدثنا معه من الظهيرة حتى غياب الشمس. لكنه لم يحدثنا عن المنام. بل عن أشياء أخرى.

قاطعه الراعي قائلاً:

ـ أعرف الساحر. كان يأتي إلى هنا أحياناً. كان ذلك قبل زمن بعيد جداً. أولادي كانوا ما يزالون أطفالاً. وزوجتي كانت ما تزال على قيد الحياة. الساحر هكذا: يتحدث عن أشياء أخرى كي يتحدث عن «الشيء».

قال هوي وهو يلمس الكوب بأصابعه:

ـ صحيح. كان ياو يريد أن يسأله عن السور العظيم أيضاً. والساحر عرف كل هذا دون أن نتحدث. كنا في فوهة الكهف وهو في الظلام. وقبل أن نفتح فمنا تكلم. قال إنه رآنا في منامه قبل ثلاثين سنة ـ تخيل، قبل أن نولد ـ قال إنه رآنا قادمين عبر الصحراء، من كوي جوين، كي نسأله عن السور، وعن منام رآه ياو.

قاطعه ياو:

ـ لم يقل أنني أنا من رأى المنام. قال: «المنام».

ضحك الراعي، فتابع هوي:

ـ المهم في الأمر أنه لم يُحدثنا عن المنام. فسردته له بنفسي، وطلبت منه جواباً.

سألهما الراعي:

ـ وماذا قال؟

فهزّ هوي رأسه بحزن، ورفع كوب الشاي إلى شفتيه.

قال ياو:

ـ تكلم معنا عن السور فقط، قال إن الـ هناك يشبه الـ هنا. إنهما الشيء ذاته. لكنني حين أخبرته عن العجائب الموجودة في الجانب الآخر من السور..

قاطعه الراعي مدهوشاً:

ـ أنت ذهبت إلى ما وراء السور العظيم.

فأجابه ياو:

ـ لا، لم أذهب. لكني أعرف رجلاً يعرف رجلاً ذهب إلى هناك عِبر مياه المحيط. وحين حكيت للساحر عن العجائب هناك، قال إنه أحبّ صوري عن تلك العجائب، ولم أعرف أكان ساخراً أم جاداً.

أردف هوي مسرعاً:

ـ وكلّمك عن السمندر أيضاً. ونحن لم نُحدّثه عن السمندر.

فشرح ياو للراعي:

ـ صحيح. قال إن السمندر قد يكون موجوداً هناك، وراء السور. والسمندر حيوان يعيش في النار، كان يعيش هنا قبل قرون ثمّ لم يعد أحد يراه. حين كنا صغاراً حاولنا هوي وأنا أن نبحث عنه فضعنا في البرّية شهرين.

علق الراعي مبتسماً، وهو يقرّب كوب الشاي متمهلاً من شفتيه المشققتين، وعضلات وجهه تتقلص وتنبئ بالألم الذي يسحق ذراعيه، علق الراعي على كلمات ياو قائلاً:

ـ كما أنتما الآن.

ابتسم هوي:

ـ لكن هذه ليست البرّية.

وافقه الراعي بهزة من رأسه ثم أردف:

ـ وأما الساحر فكان سيخبرنا أن العالم كلّه، ببيوته ومدنه ودور البغاء والمتاجر والملاهي والبحيرات والأنهار والطيور والأسماك، الساحر كان سيخبرنا أن العالم كلّه برّية.

تأمل ياو البخار يتصاعد من فوهة الإبريق. كان يحسّ أن الشاي قد بعث نشاطاً جديداً في دمه، فكأنه إستيقظ للتو من نومٍ عميق. ووجد نفسه يسأل الراعي:

ـ هل تعرفه جيداً؟ أقصد، الساحر.

أجاب الراعي:

ـ نام على فرشتي. أكل من صحني. شرب من خمري. بلى، كان يشرب الخمر آنذاك. وطبخ القمح والعظم المدقوق لأولادي. وتحدث مع زوجتي. إذاً، أعرفه قليلاً. لكن، أن أعرفه؟ لا أدري. الساحر من الأقدمين. الواحد لا يعرف الأقدمين. الساحر قال لي إن الأقدمين يشبهون مؤلّفي الكتب. نعرفهم ولا نعرفهم. أنا لا أفهم ذلك لأنني لا أقرأ. ربما أنتما تفهمان. وقال لي أيضاً إن الواحد يعرف عن الأقدمين من الحيوانات والطيور أكثر مما يعرف عنهم من أفواه البشر. هل أخبرتكما عن زوجتي؟

أطلقا ضحكة للطريقة المندفعة التي لفظ بها الراعي سؤاله

الأخير. فضحك الراعي أيضاً. وسكب لهما المزيد من الشاي. كان هوي قد أتكأ على كتف ياو، وجعل ينعس ملتذاً.

قال الراعي وهو يحمل قضيباً وينكش الجمرات في المنقل:

- تزوجتُ زوجتي التي كانت إبنة عمي حين كنت أصغر منكما. وكانت لئيمة. لم تترك رجلاً من شرّها. حتى الساحر جربت معه. كان يجلس هنا فتأتي لتحدثه فيهرب منها إلى الخارج. يجلس بين الأولاد ويتكلم معهم فتهجم عليه من جديد. كان يكلمها خافضاً رأسه، وكانت تأكله بنظراتها أكلاً. وأنا أتفرج من المرعى، أو عن الهضبة، وأضحك. وصار الساحر لا يطيق البقاء وحده هنا. فحين لا يسوق القطيع إلى المرعى الأبعد يذهب إلى الغابة ويقطع الأشجار بفأسه ويعود محمّلاً بالحطب.

من جديد طرح هوي سؤاله وقد استفاق من سكينته فجأة:

- لكن ذلك المنام الذي حكيته لك. هل تملك له تفسيراً؟ أنا وياو نعلم أنه ينبئ بأنني سوف أموت. والساحر، بصمته، جعلنا على يقين. أنت ماذا تعتقد؟

صمت الراعي لفترة، ينكش الجمرات ويوزعها حول الإبريق، أو ينفخ غبار الرماد عن ذراعيه المدهونتين بالزيت. شم ياو رائحة زيت السمسم القوية، وأحس بريشة تدغدغ باطن قدمه المحروقة. تكلم الراعي ناظراً نحو الخراف التي بدأت تتململ:

- صمت الساحر قد لا يعني ما فهمتما. كلّمتكما عن قطيع من الأغنام المريضة، فاسمعا: في ذلك الزمان حلمت - قبل سنة تقريباً من مرض أغنامي - حلمت أنني أمشي في سهل أخضر فسيح.

كانت الأعشاب طويلة، عالية كقامة رجل، وتدغدغ وجهي. وفكرت أن هذا أطيب مرعى في العالم. قرصت عشبة وذقتها. وضعتها في فمي ولكتها. كانت ألذّ من الزبيب. قررت أن أمضي فوراً وأجلب أغنامي إلى هذا المرعى قبل أن يسبقني إليه أحد الرعاة. بدأت أركض فتعثرت ووقعت على وجهي. فكرت أنني قد تعثرت بحجر. نظرت خلفي فرأيت غنمة ميتة. خروف أصفر جميل، على قائمة من قوائمه علامة. علامة أعرفها لأني بيدي، بقضيب الحديد، أدمغ بها خرافي. هذا خروف من عندي، فكيف وصل إلى هنا، وما الذي أماته؟ عدت أركض نحو الزريبة، وكلّي خوف وفزع، وتعثرت ثانية. نظرت: هذا خروف آخر. وكنت أركض وأقع. ومع كل سقوط اكتشف خروفاً. ثم توقفت عن الركض، ونظرت حولي، فرأيت الخراف الصفراء تغطي المرج الأخضر. وكلّها مطروحة على الجانب ونافقة. في الصباح استيقظت والعرق يسيل مني. قفزت ونظرت إلى خرافي - ليست هذه الخراف، بل الخراف التي كانت خرافي آنذاك - فرأيتها تستيقظ هي أيضاً، وسمعت الثغاء يعلو، ثم خارت البقرة، فارتحت. لكني بينما أسوق الخراف إلى المرعى فزعت من جديد. فرجعت بها إلى الزريبة، ورميت لها بعض الأعشاب التي جمعتها مؤنةً للشتاء، ثم أقفلت الباب، وذهبت إلى الساحر. إلى «كهف النار». لم أجده. فناديت عليه. لم أعرف كيف أنادي في البداية: هل أقول يا ساحر، أم أصرخ فقط. وأخيراً وجدتني أهتف: «تشن كو، تشن كو». لأني تذكرت أن الساحر قال لي مرة: «إذا احتجت إليّ فاهتف باسمك». وهكذا ظهر لي الساحر من كهف من الكهوف السفلى، وصعد إليّ. سألني ما الأمر. فأخبرته منامي. فقال:

«صحيح، صحيح». ثم سكت. طلبت منه أن يشرح النبوءة. فظل صامتاً. طلبت ثانيةً فقال: «هل تقدر أن تصف وجهي؟» قلت لا. فسألني لماذا. قلت: «لأن لا وجه لك. لأن وجهك يتبدل دوماً. أحياناً يشبه وجه ابني الأكبر. وأحيانا يشبه وجه إبني الأصغر. أحياناً هو وجه زوجتي. وأحياناً هو وجهي. وفي أحيان أخرى هو وجه لا أعرفه، وما أن أعتاد عليه حتى يتبدل من جديد. فكيف أصف لك وجهك؟» فأجابني الساحر: «لكن ها أنت قد وصفته». فلم أفهم قصده، وسألته ثالثةً عن المنام وهل ستمرض خرافي وماذا أقدر أن أفعل. فقال: «تشن كو. العالم مقدس. ولا يسعك تحسينه. ولو حاولت تغييره لكان خراباً. الأقدمون عرفوا ذلك. الحكيم يسأل: أتحسب أنك قادر على تولي أمر العالم وتحسينه. ثم يجيب بنفسه على سؤاله: أنا لا أرى ذلك ممكناً». لم أفهم، وسألته من جديد عن المنام، هل ستموت خرافي، وقلت: «قبل أيام فقط جززت صوفها، كان في حالة سيئة ولم يشترِه أحد، إذا مَرِضت الآن أخسر الحليب واللحم والصوف الذي سينمو أيضاً. هل ستمرض الآن وتموت؟». نظرت إلى الساحر انتظر جوابه فإذا بوجهه قد تبدل. أصبح وجهاً لم أرَه من قبل أبداً. وقبل أن أفتح فمي ذاب في الهواء.

رفع الراعي إبريق الشاي، وملأ كوبه للمرة الثالثة، وهوي وياو لم يشربا ما في كوبيهما بعد، ثم تابع الكلام:

ـ فسّرت صمته مثلكما. قلت الخراف ستمرض اليوم. أصابني الهمّ. من أين سأجلب الحليب لأولادي. كيف سنعيش. وفي تلك الليلة ضربتني الحمى. كدت أموت. وطوال الليل سهر أولادي الخمسة حولي واعتنوا بي حتى شفيت. فلما شفيت قلت

لنفسي: مرض القطيع ولا مرض الأولاد. أعتمد على السماء ولا أخاف. أذهب بالخراف إلى المرعى وأرجع بها وأُصلي ألا تمرض قبل أن ينمو صوفها من جديد. وهكذا فعلت. وعاشت الخراف. وبقيت صحيحة. حتى انتهت السنة ونما صوفها كلّه. فبعتها للدبّاغ.

سكت الراعي. بعد قليل تكلم ياو:

- إذاً صمت الساحر قد لا يعني شيئاً محدّداً.

قال الراعي:

- أعتقد أنه يصمت حين يحس أن علينا نحن أن نحلّ مشاكلنا بأنفسنا.

اندفع هوي إلى الأمام، كاد يُسقط كوب ياو أرضاً، وقال:

- لكن المشكلة هنا ليست في الخراف. أنا لا أملك خرافاً قد تمرض.

قاطعه الراعي:

- قصدت الإبصار. قصدت الصَّلاة. هل يعيش الإنسان إلى الأبد؟ لا. وأنت رأيت نفسك... لا، ياو هو الذي رآك تنزف، رآك تموت. لكن كيف نعلم متى سيحصل هذا؟ ربما لن يحصل قبل مئة سنة.

كلمات الراعي أصابتهما بالذهول التام. فتبادلا النظرات. وحين تأكدا أن دهشتهما واحدة ابتسما.

وحدث ياو نفسه: «فعلاً، من أين جاءني اليقين أن موت هوي قد يكون قريباً!».

وهتف هوي:

ـ لو كلّمنا الساحر بما كلّمتنا به! لماذا عذّبنا هكذا؟ لماذا صمت؟

ابتسم الراعي، وقام يُبعد المنقل، استعداداً للنوم.

العيش في الحرير

بعد أيام، في طريق العودة إلى كوي جوين، قال هوي لياو:

ـ اسمع ياو. منذ أيام، منذ تلك الليلة في زريبة الراعي وأنا أفكر في حياتنا، وأحاول أن أفهم كلمات الساحر. لماذا حدّثنا مثلاً عن لباسه؟ ولماذا حدَّثنا عن طعامه؟ ألم يكن يقول لنا شيئاً خفياً لم ننتبه إليه آنذاك؟ تكلَّم عن هذا مرتين. أو ربما ثلاثاً. وقال إنه ـ في منام ـ ناقش لاو تسه في ذلك.

كانت الصحراء خلفهما. والطريق التي تمتد أمامهما محاطة بصفّين من الأشجار(*) عن الجانبين. التفت ياو صوب هوي. كان وجهه غارقاً في الظل الوارف، وسأله:

ـ يبدو أنك قد قررت شيئاً.

فأجابه هوي:

ـ فعلاً. لكني لم أجزم بقراري إلاً هذا الصباح.

فسأله ياو:

(*) هذه الأشجار كانت تُزرع على جوانب طرقات الإمبراطورية الرئيسية بأمرٍ إمبراطوري.

ـ لماذا هذا الصباح؟

فكذب هوي قائلاً:

ـ البارحة رأيت مناماً أفهمني منامك. رأيتك تنصب كميناً لنمر. الحبل بالعقدة على الأرض وبالطرف الآخر المرمي فوق جذع عالٍ والمربوط إلى عصا جاذبة. فخ من الفخوخ التي تستعملها أنت دوماً.

وأما أنا فكنت قرب نهر، كالنهر الذي قطعناه قبل أيام، وكنت أزرع الأوتاد المسننة الرؤوس في طين الشاطئ وأغطيها بالأعشاب اليابسة. فخ للتماسيح. حين ستزحف خارجةً من النهر مساءً ستنغرز هذه الأوتاد فيها وتثبّتها هنا حتى الصباح. وبالفعل رأيتني أنزل إلى النهر عند الصباح. وأجد التماسيح قد نزفت حتى الموت. فأفتح بطونها بعد أن أخلّصها من الأوتاد وأُخرج المرارة الصفراء منها. هذا العمل يستغرقني وقتاً طويلاً جداً. عند الغروب أحمل صيدي من المرارة الصفراء وأمضي عائداً إلى المدينة وأنا أفكر: سوف أبيع نصفه للعشّاب صانع العقاقير، وأترك نصفه الآخر لنا، لربما عضّتنا أفعى ذات نهار، وسمّ الأفعى لا دواء له إلاّ مرارة التمساح. وهكذا بينما أفكر في هذا أجدني أدور حول نفسي، وقبضة تشتد حول كاحلي، وشيء يرفعني إلى السماء من قدمي. قد علقت في فخّك دون أن أنتبه، وكيس المرارة الصفراء سقط مني ولطخ العشب والتراب تحتي. في البداية أضحك. فأنا الذي علقت في فخّك لا النمر. ثم وأنا أضحك إذا بصراخ يعلو. أنظر، والمساء حولي قد أقبل، فأرى شبحاً يترنح بعيداً، أحدق جيداً فأرى أن الشبح هو أنت. وأرى أن الدماء تنزل من عنقك

وتسيل على ثيابك. وخلفك يثب نمرٌ أصفر مخطط بالأسود والأحمر. نمر طويل، ويخبط وجهك بمخالبه. أحاول أن أفرّ، أن أركض إليك، لكني معلق من الشجرة، و...

أطلق ياو ضحكة، فقطع قصة هوي. خرج هوي من ظلال الأشجار واقترب بحماره من مطية ياو، ثم قال:

ـ تحسب أنني أكذب، أليس كذلك؟

فأجابه ياو، وهو يحسّ بحكاكٍ بسيط في باطن قدمه التي شفاها الزيت:

ـ هذا غير مهم. أكمل قصتك.

قال هوي:

ـ هذا منامك، لكن معكوساً. ألم تصدقه؟

ضحك ياو قائلاً:

ـ ولا كلمة منه.

صمتا. انحرفت الطريق شرقاً. شاهدا بعض الثعالب الحمراء تعبر خلف الأشجار وتنطلق في اتجاه الجبال البيضاء. أراد ياو أن يقفز عن حماره ويلاحقها بنباله، فجذبه هوي من ثوبه قائلاً:

ـ انتظر. ألا تريد أن تسمع قراري؟

هزّ ياو ذراعه بعنفٍ متخلصاً من قبضة هوي ثم قفز عن الحمار. خطف القوس والنبال بيد وانطلق يجري بين الأشجار.

تابع هوي المسير وحيداً، وقد سقط وجهه. بعد قليل نزل عن حماره، وقفل عائداً. جذب حمار ياو من الرسن، وتحرك صوب

حماره من جديد. ربطهما خلف الأشجار، في فسحة من العشب الأخضر، ثم جلس على الأرض. أسند ظهره إلى جذع من الجذوع. في البعيد لاح شبح ياو بالرداء الأحمر، يتسلق التلال ويهبط، يختفي خلف عشب المروج ثم يظهر. وتبين هوي، الأشباح الأخرى الصغيرة، حمراء أيضاً، تثبّ في الفضاء، تغطس بفروتها في بحر العشب الأخضر، ثم تقفز إلى نور الشمس من جديد. وكان حزيناً حتى الموت.

بقي حيث هو حتى الغروب. مضت الساعات وهو لا يشعر بجسمه. في البداية راقب مطاردة ياو للثعالب. بعد ذلك اختفى ياو عن بصره. واختفت الثعالب أيضاً. لم يعد يرى إلاّ السهل الأخضر، والجبال البيضاء البعيدة، والسماء الزرقاء العالية. جاء سرب من الطيور الملونة، وملأ الأشجار حوله، ثم طار من جديد. فكر في الأشجار إذ تغادرها الطيور. كانت الشمس تميل في قوسها، كما تفعل كل يوم، منذ ملايين السنين، وفكر في العشرة آلاف(*) شيء التي تعيش فوق الأرض، وعاد إليه نشيد من أناشيد لاو تسه: «بعد عراك مرير يتبقى شيء من الأشياء. ماذا يمكن أن نفعل؟».

كانت الشمس قد بدأت تنحدر وفكر في النساء. قبل أيام، إثر عبورهما النهر، توقفا ليلة في سايان فو المشهورة بالمرايا وبالنساء. أهل سايان فو يتفوقون حتى على أهالي كوبيام الشهيرة في صناعة المرايا. في الأسواق، في البيوت، وحيثما نظرا، كانت المرايا المصنوعة بمهارة فائقة تشع ضوءاً وتعكس صور البيوت

(*) هو أعلى رقم، أو الـ «وانغ» في اللغة الصينية، ويساوي عدد المخلوقات.

والأسواق، وتعكس صورته وصورة ياو. من المرايا الكثيرة المتقابلة بدا لهوي أنه يمشي في مدينة مليئة بمدنٍ أخرى تطابقها، وأن هذه المدن الأخرى التي تُسمى سايان فو أيضاً، موجودة ضمن أسوار سايان فو التي دخلها قبل قليل. وفكر هوي أن كل مدينة من هذه المدن التي تُسمى سايان فو تشهد في هذه اللحظة دخول غريبين إليها، أحدهما يُدعى هوي، والآخر ياو.

في غرفة الغانية التي اختارها لليلته، سحب هوي البطانيات والشراشف عن السرير، وغطى المرايا الطويلة الموزعة في الأنحاء. فسألته الغانية:

- أتكره أن ترى نفسك وأنت تضاجع؟

أجابها ضاحكاً:

- أبداً. لكني منذ أيام طويلة لم أذق طعم إمرأة. والليلة أريد أن أفعل ذلك طويلاً، وبمفردي.

إستعاد ضحكتها في أذنه. فحين كان معها كان يفكر في كل ما سمعه عن نساء سايان فو، عن بدانتهن الجميلة، عن التداوير الساحرة لأجسامهن، وعن براعتهن في المخدع. لذا سألها هل ذلك صحيح، فأجابته جادةً:

- كيف لي أن أعلم وأنا لستُ من سايان فو. كل ما أعرفه عن نساء سايان فو أن بشرتهن شقراء، وأنهن مثلي مجردات من شعر الجسم، وأعلم أيضاً أنهن خليعات منحلات، وإن كانت أجسامهن جميلة القد فإن روائحهن ليست كذلك.

أدهشه حديثها، وكانت فوقه الآن، فسألها من أين هي. أجابت وهي تُبعد شعرها الطويل عن وجهه:

ـ من كامول. هذه مدينة بعيدة، في مملكة تانجوت.

وتحركت بسرعة فهتف:

ـ ليست بعيدة جداً. ها أنتِ.

فضحكت (تلك الضحكة) وتابعت:

ـ في بلادي لا تشبع النساء من الرجال. حتى أن الرجال يفرّون إلى خارج المدينة إذا دخلها رجل غريب لعل الغريب يختار بيتاً من بيوتهم فيسكن فيه. هنا، حين أروي هذا، لا يصدقني أحد. الغريب في بلادي يدخل الدار فيجد الإناث فيها، ولا يجد الرجل. الرجل منحه الزوجة والبنات والأخوات. وعليهن امتاع الضيف بكل ما يرغبه. وحين يفرغ البيت من الطعام ـ فالغريب يكون متعباً ومشتاقاً وجائعاً ـ تذهب امرأة منهن إلى رجلها المقيم عند أحد أصحابه وتطلب منه شراء الضروريات: القمح واللبن والزبيب واللحم والفاكهة والخمرة وما إلى ذلك. ونساء مدينتي، للمناسبة، جميعهن حنطيات اللون مثلي، وبالغات الجمال، يعشقن اللذة والمرح، وحسب ما كنا نسمع من الغرباء ـ والغرباء كما تعلم خبروا كل شيء وذاقوا كل شيء ـ فإن نساء مدينتي هنّ أجمل النساء على سطح الأرض.

ابتسم هوي، وهو جالس في ظل الشجرة. كانت الشمس تغيب في الأفق، وهبّ هواء المساء البارد، وعَبَر ثعلب أحمر على بعد خطوات، ثم دخل بين الأعشاب واختفى. تساءل لماذا تأخر ياو هكذا. وسأل نفسه: «ماذا لو لم يرجع؟».

فجأة أحس بالذعر: «هل يمكن ذلك. أيمكن لياو أن

يهجره. ياو الذي لا يعرف صديقاً وأخاً غيره. ياو. ياو. ياو».

كرّر الاسم في قلبه، كمثل صلاة: «ياو، ياو». تذكره يقفز عن الحمار بعد أن أزاح يده جانباً. تذكره يخطف النبال والقوس ويختفي بين الأشجار مطارداً الثعالب. ومن جديد فكر في ذلك المنام: كان ينزف مترنحاً في فوهة الكهف، وياو لا يقدر أن يساعده لأنه معلق من قدميه في الفضاء.

بلى، الراعي أراحه قليلاً في تلك الليلة. الراعي له تجربته ويعلم أن صمت الساحر لا يعني شيئاً واحداً فقط. وهو يثق بالراعي. فقد التقاه في فم الموت. بين ألسنة النار. كان الراعي فوق يبحث عن الغزالة التي تملكها العجوز التي أخرجها من فم الموت لتوّه. ما هذا الرجل الذي يجازف بروحه لينقذ غزالة عجوز؟

دخل هوي الغرفة العابقة بالدخان وبرائحة الصندل والكافور، فرأى الراعي يدبّ على أربع، ويبحث بين الأثاث. فنزل هوي على ركبتيه، يبحث معه. (ظن أنه يبحث عن طفل أو ولد). فرفع الراعي رأسه وقال:

ـ أنا تشن كو، الراعي.

صُعِق هوي، ثم ضحك، وسعل قائلاً:

ـ أنا هوي، الصياد. عمّ تبحث؟

فقال الراعي: ـ الغزالة.

ووقفا، ثمّ هُرعا إلى النافذة ليسحبا نفساً من الهواء، فشاهدا في الأسفل، وسط الشارع، الغزالة التي قفزت وكسرت قوائمها.

بلى، الراعي أراحه قليلاً. فعلاً، الموت موت، ولا أحد قال

إنه يجب أن يموت في الغد لأن ياو حلم بذلك في البارحة. وقال هوي لنفسه: «لكن بعد الآن يجب أن...». وتحرك الهواء فجأة. وفي تلك اللحظة ظهر ياو أمامه حاملاً ثعلبين.

رفع ياو الثعلبين عالياً في الفضاء ثم طوّح بهما بعيداً، الواحد إثر الآخر، وقال:

ـ انتهينا. أعرف قرارك. لا تريد أن تصيد بعد الآن. أصبحت تخاف المخالب والخناجر والكهوف. أعرف. تريدنا أن نجد مهنة أخرى. هذه الطرفة التي لفظناها بينما نتسلق الجبل إلى كهف الساحر، هذه الطرفة تحولت إلى حقيقة.

وجلس ياو قرب هوي وتابع:

ـ الطرد والقنص يخبلان العقل. إذاً، ماذا نعمل الآن؟

العيش في الحرير (2)

قال هوي وهو يقوم واقفاً:

ـ منذ اليوم سنعيش في الحرير، أبعد ما يكون عن الخطر.

واستدار وأخذ يتسلق جذع الشجرة، ويقطف الزهور البيضاء ذات الرائحة الزكية، ثم يملأ بها جرابه الجلدي. نظر إليه ياو من تحت وسأله هل سيتحوّلان إلى عشّابين. ضحك هوي، فاهتزت الشجرة، وانهمر فوق رأس ياو وابلٌ من زهور الكينا. حين تراجع خطوة، سمع هوي يعلن:

ـ منذ سنوات نجمع المال. الآن نمدّ يدنا إلى ما جمعنا، نشتري معملاً للنسيج. نجلب إليه أربعين أو خمسين عاملة، ونتحوّل إلى أميرين.

مضى ياو صوب الحمير. أخرج من جرابه قارورة خشبية مليئة بخمر التفاح. قلبها فوق فمه، فدخلت رائحة الكحول الحادة في أنفه. تذكر المتجر حيث ابتاعها.

المتجر كان على ضفة النهر العظيم. نهر كيانج العريض الفوار المجرى الذي امتلأ بالعبّارات. وهما ركبا ـ مع الحمير المكدودة ـ

واحدة من هذه العبّارات. عن طرفي العبّارة وقف الفتيان، على رؤوسهم قبعات القش، وفي أيديهم العصي الطويلة، يغرزونها في قعر النهر، ويدفعون بها العبّارة المصنوعة من قصب الخيزران. كان النهر أسود اللون، وكان ياو يعلم أن لونه ناتج عن الفطريات السوداء الكثيرة التي تنمو عند ضفتيه في هذه النقطة منه. هوي قال إن مياه النهر هنا سامة. وأحد الذين عبروا معهما، استدار، وحكى لهما عن نهر في الشمال يسمى «نهر المرارة» لأنه أصفر، من الطين الكثير في قعره. نزلا عن العبّارة. سحبا الحمير حتى اسطبل يجاوره مقهى ومتجر، ومضى هوي إلى المقهى ليطلب شراباً وطعاماً. دخل ياو إلى المتجر، فرأى رؤوس الوعول والأيائل المحنطة بارزة من الجدران، ورأى الجلود المدبوغة، جلود ببور وفهود ودببة. في صدر المتجر جلس عجوز أبيض الشعر، ووجهه يشبه اليقطينة اليابسة، يشرب الخمر ويأكل الأرز الممزوج بقطع الدجاج والتوابل. قال له العجوز اجلسْ. فابتسم وجلس. قال له العجوز خذْ وأشربْ. فأخذ وشرب. كان يحسب أنه خمر الأرز الذي اعتاد عليه، فإذا به خمر لم يشربه من قبل. وسأل العجوز ما هذا، فضحك العجوز. مدّ يده بالصحن الفخاري إلى ياو، وقال خذْ أولاً وكلْ. لاكها جيداً فانتبه: هذا دجاج نيئ. يعلم أن بعض الناس في المدينة لا يطبخون الدجاج بل ينقعونه في الخمر والتوابل مقطّعاً إلى شرائح رفيعة. ولاك، وقد أوجعه فكّه، وبلع. فضحك العجوز وقال:

ـ هذا الخمر الذي شربته مصنوع من التفاح والأرز والقمح معاً. وكل ذلك نمزجه بالقرفة والقرنفل والزنجبيل. ونسمّيه «خمرة الروح». لأن لا شيء يشفي من الأحزان مثله.

ونهض العجوز وجلب له قارورة من الخمرة وقال:

ـ وجهك أيها الصيّاد يقول لي أنك تريد ولا تقول، كأنّك في دوامة.

شرب ياو المزيد. أحس بالحمار يتحرك بعيداً وقد أزعجته الرائحة الحادة. استدار وهتف لهوي النازل عن الشجرة:

ـ اسمع، تحت هذا المرج الفسيح يوجد نهر. في عمق الوادي. فلننزل ونسقِ الحمير، وننم تحت هذه الليلة، ما رأيك؟

انطلقا، يجران الحمير خلفهما، قاطعين المرج الأخضر. كانت الأعشاب طويلة، تغطيهما حتى العنق. سمع ياو خشخشة قادمة من جهة هوي. فالتفت مسرعاً ويده تسحب الخنجر من تحت الثوب، وهتف:

ـ انتبه، ثعبان!

ابتعد هوي ضاحكاً. رأى ياو وجهه يشرق وسط شعاع الغروب الأحمر متوهجاً بالحبّ. كانت ذراع هوي ترتفع من أعماق البحر الأخضر، وقد تكورت قبضته على بيضة كبيرة. وسمعه يقول:

ـ عثرت على عش في الشجرة. الكينا شرابنا الليلة، والبيض طعامنا.

على مسافة وثب نمر يطارد أرنباً سميناً. كانت فروة النمر الذهبية تلمع وسط الأعشاب الخضراء التي تنحني أمامه فيمعسها بثقل جسده الطويل. رآه ياو ينقلب. عرف أنه قد خبط الأرنب بمخالبه، وهو الآن يلاعبه قبل أن يلتهمه. حلّق سرب من البجع

في الأعالي، بأعناقه الطويلة، وأجنحته المفرودة. كانت السماء الزرقاء صافية تماماً، واللون الرمادي الكالح قد أخذ يغزوها. قال هوي:

ـ قد تمطر الليلة.

فضحك ياو:

ـ نجد كهفاً.

النهر كان ينزل منساباً من الغرب البعيد. كأنه ينبع من بحر الشمس الحمراء المنحدرة إلى حيث لا يعلم أحد. وقال ياو أن هذا النهر ينساب عبر الأودية قادماً من بحيرة بعيدة تتوسط سلسلتين جبليتين، وأن البوذا رأى السلحفاة النهرية المقدسة أول ما رآها هناك، خارجةً له من فراش البحيرة المغّطى بالنيلوفر الذي نما فوق صفحة الماء. وعلى ظهر السلحفاة كانت التعاليم المقدسة.

كانا الآن في قعر الوادي. عن الجانبين غزت الأعشاب الأرض. من جانب تعالت الجبال البيضاء الشاهقة التي تغطيها الثلوج على مدار السنة ولا يعتريها ذوبان إلاّ في أواخر الصيف. ومن جانب صعدت الهضبة التي تنتهي بالمرج الأخضر الفسيح حيث كانا قبل قليل. ربط ياو الحمير إلى شجرة صفصاف في بقعة غزيرة الكلأ، فيما أعد هوي النار لتسخين الماء وسلق البيض وإعداد الكينا.

جاء ياو حاملاً جراباً أخرج منه بعض الأقراص البيضاء المدوّرة، كل قرص باستدارة وجه إنسان. جلس قرب هوي ونظر إلى قدر الماء فوق النار ثم سأله:

ـ أتعرف ما هذا؟

هز هوي رأسه أن لا. فأخبره:

ـ ذلك المتجر قرب النهر، من هناك اشتريته. يسمونها خبز اللبن. يجففون اللبن في الشمس حتى يصبح كالعجينة اليابسة ثم يعالجونه بنقيع من الجذور البرّية حتى يصبح على هذا الشكل.

أخذ هوي قرصاً من ياو. قضم طرفه، وذاقه، ثم بصق، وقال:

ـ ما هذا؟ طعمه كالتراب!

فضحك ياو قائلاً:

ـ لأنه لا يؤكل وحده. فقد نسيت أن أخبرك أن هذا اللبن لا قشدة فيه. فهم يغلونه قبل تجفيفه. وبعد الغليان ينزعون القشدة عن الوجه، لأن القشدة مانعة للجفاف.

قام ياو ونزل إلى النهر وهو يُخرج الخنجر. على ضوء النار رأى بعض الأسماك تدور في حفرة من الحصى الأبيض المستدير. اقترب منها متمهلاً، يخطو في الماء الراكد. رفع هوي رأسه. رأى الشعاع الصادر عن النار ينعكس فوق شفرة الخنجر، ورأى ياو ينحني فوق الشفرة العريضة، ثم يخطف نفسه إلى اليسار خطوة، ويغرز خنجره في الماء.

أكلا بيضاً مسلوقاً وسمكاً مشوياً، وشربا خمراً. حين أحسّا بالتعب تمدّدا قرب النار. كانت رائحة الكينا تغزو الفضاء.

قال ياو وهو يمرّر يده على بطنه:

ـ الآن نشرب الكينا.

نظر هوي صوب الحمير. رآها ما زالت تقضم أقراص اللبن المجففة التي ابتاعها ياو. ضحك. قال ياو اسمعْ، فسكتا. كانت همهمة مكتومة تأتي من وراء النهر حتى يكاد أن يضيع صوتها في هديره. أصاخا السمع، ورفع ياو رأسه، ورأى العيون تشع في عتمة الغابة ما بعد النهر. سأله هوي:

ـ ضباع أم ذئاب؟

قال ياو أنه غير متأكد. أسرعا إلى الحمير يحكمان ربطها إلى الأشجار، ثم انحدرا نحو دغل من الخيزران قريب. بالفأس قطعا كومة من القصب، ونزلا به حتى الضفة. ومضى هوي إلى حرش مجاور، وعاد محملاً بالجذور والجذوع اليابسة. صنعا ناراً كبيرة. جعلاها على شكل دائرة، وفي الوسط فراغ، ثم أخذا يرميان بقصب الخيزران وسط الدائرة. تعالت ألسنة النار. من الشكل المثلث للعيون الفوسفورية التي تلمع في الظلمة وراء النهر حدس ياو أن الحيوانات الطامعة بجسديهما، هذه الليلة، ضباع لا ذئاب. لفحته النار. رمى بمزيد من القصب الأخضر. ابتعدا راكضين نحو نارهما الصغيرة، فوق، حيث الحمير.

حين بدأت الفرقعة دَبَّ الذعر في الحمير. حاولت أن تتخلص من الأرسنة، فحزّت الحبال أعناقها. حاولت بقوة أكبر. قوائمها ترتجف، وحوافرها تلطم التراب، والزبد ينزل من بين أفكاكها، لكن دون جدوى. نظر ياو نحو الضفة الأخرى. تأمل العيون المذعورة في العتمة، وأحس بحركتها الصاخبة بين الأشجار. بعد وقت خيل إليه أنه يسمع لهاثها وهي تفرّ مبتعدة. رفرفت أسراب

الطيور تغادر الغابة صعوداً نحو الجبال. ورأى هوي، في الوهج القوي الذي صنعته النار عند ضفة النهر، رأى المياه تتلوّن بالأحمر والأصفر. ورأى الأسماك تسبح بعيداً. ورأى ريشاً ينزل من الفضاء، فيختلط بالدخان وبالشرر، ثم يطفو على وجه النهر. والنهر يجري وئيداً كأنه لا يجري.

عندما انتهت الفرقعة سكبا الكينا. كان طعمها مُرّاً بعض الشيء لأن المياه غلت طويلاً على النار. وقاما لحظة ومسحا على أعناق الحمير كي تطمئن، ثم عادا إلى النار والكينا والصمت.

الغزالة

في المنام، تلك الليلة، رأى ياو نفسه واقفاً فوق السور العظيم. التفت إلى اليسار فرأى الإمبراطور تشي ـ هونغ ـ دي. سأله:

ـ ألست من الأموات؟ إن حفيد حفيدك، أو ربما كان حفيدك، لست أعلم، لكنني أعلم أنه يموت منذ سنوات، في الحرير، والنقرس يأكل جسمه.

قال الإمبراطور وهو ينظر إلى البطاح المترامية كالبحار حتى آخر العالم:

ـ لم أبنِ السور كلّه. أنا الأولُ من سلالة تشي ـ ين بنيتُ وصلات بين أسوار كثيرة فإذا بها سور واحد. من البحر حتى الصحاري. والآن لا يقدر البرابرة على اجتياح الإمبراطورية، لا من الغرب، ولا من الشمال.

ضحك ياو قائلاً:

ـ الآن تأكدت أنك من عالم آخر. البرابرة اجتاحوا الإمبراطورية أكثر من مرة ثم غادروها. هذا الجدار لا يمنع عنا مخلوقاً. إنه فقط يمنعنا عن العالم.

تقدم الإمبراطور. مال فوق السور ونظر إلى أسفل. رأى حراساً قرب البوابة الضخمة يشوون القمح الأخضر. شم الرائحة وقال:

ـ هذه الرائحة التي أشمّ هي العالم.

استيقظ ياو. نظر إلى حيث كان هوي نائماً فلم يجده. أغمض عينيه وتخيله وقد ذهب بدونه. ثم سمعه يتكلم. رفع رأسه فرأى هوي يفك أرسنة الحمير مبتسماً. قال هوي:

ـ هيا أيها الكسول.

انطلقا عبر الطريق المحاصرة بالأشجار. قرب قرية من قرى البريد(*) توقفا قليلاً. شربت الحمير حتى ارتوت، بينما التهما بعض الأرز، ثم تابعا السير. التقيا ببعض العشّابين المنهمكين بجمع جذور لا تُجمع إلاً في هذه الفترة من السنة. وبينما يقطعان الجدول الضحل قرب مدينة كابن جوي شاهدا عربات قمح وأرز تنطلق خارجة من بوابة المدينة. قال هوي:

ـ تكون الحبوب قديمة فيستخدمونها علفاً للماشية.

ظل ياو صامتاً، لم يلتفت باتجاه صديقه.

بعد ساعات عبرا قرب سور تشان غيان فو. من وراء السور

(*) تُسمى «يامب». وتُبنى بأمر إمبراطوري. وفيها يبدل الرسل والسُعاة أحصنتهم المكدودة بخيول مستريحة ويوجد فيها مكتب لتنظيم البريد، ونزل واسطبل ومتاجر. وإلى هنا يُرسل الإمبراطور أناساً ليسكنوا ويزرعوا الحقول فتعمر الأراضي النائية جميعها.

تعالت جلبة المدينة. سمعا ضرب الصنوج يعلن اقتراب ساعة المغيب. نظر هوي نحو ياو يسأله بالنظرات هل ينزلان هنا فنكس ياو رأسه. تابعا الطريق.

امتلأت السماء بالنجوم. كانا قد تجاوزا مدينة تن جوي جوي. مع إقتراب الفجر أشرفا على مدينة سن جوي. كان هوي حزيناً للغضب الصامت الذي يفور في أعماق ياو، فيكبته ولا يظهره، فيبدو مشدوداً كالقوس، كسدٍ من التراب في مواجهة تيار مائي عارم.

ووجد نفسه يقول:

ـ ألا تريد أن تكلمني؟

التفت ياو صوبه مبتسماً، وقال:

ـ سننزل هنا. بينما نعبر قرب تن جوي جوي سمعت أنا أيضاً أصوات العربدة، وشاهدت الأضواء في طرف المدينة(*)، وسمعت النساء.

فضحك هوي قائلاً:

ـ لا أتكلم عن هذا. في سايان فو شربت حتى ارتويت.

فخبطه ياو هاتفاً:

ـ الكذّاب عطشان أبداً، قال تشوانغ تسه.

دخلا سن جوي عندما فُتحت بوابتها. عبرا السوق الذي كانت

(*) كانت أحياء البغاء (السوق العمومي) تُبنى عند طرف المدينة أو خارجها.

متاجره تُفتح للتو. في الجو رائحة شاي. نظر هوي نحو متجر علقت قطع حرير ملونة أمامه. شاهد ياو بعض الصبيان يركضون حاملين النبال. عبرت قافلة من البغال تحمل قضبان توت أخضر. سمع هوي صوت إمرأة تهتف لتوقظ أولادها من النوم. انحرفا في الدرب الذاهبة إلى اليسار. كانت أرضها مرصوفة بالحجارة. استمع ياو إلى قرقعة الحوافر على الصلد. أحسّ بألم في صدره، وقال إنه من تعب الرحلة الطويلة. أغمض عينيه وترك المطية المتحركة تهدهد جسده، ورأى نفسه يلاحق ثعلباً ويقفز معه فوق السور ويضيع في المسافة. فكر ياو أنه هو أيضاً ضجر من الصيد، وقال لا، هوي لم يضجر بل خاف، وقال لكن أنا ضجرت، ورجع وصحّح لنفسه، وقال لا ليس ضجراً، ليس مللاً وحسب، أريد شيئاً آخر، لا أعلم ما هو، لكني أريده، وسأل نفسه ماذا يريد.

شم رائحة قوية ففتح عينيه. رأى متاجر التوابل عن الجانبين. أكياس القش المفتوحة منتفخة بالبضاعة المعروضة للعيون، الطازج منها واليابس، الراوند والزنجبيل والقرفة وجوزة الطيب. كانت الروائح تتضوع في الفضاء، وتغزل خيوطاً في الشعاع الصباحي القوي. سمع هوي يكلمه فالتفت صوبه. قال هوي:

ـ كنْ حذراً، نحن الآن في مدينة الأرض.

ضحك ياو لأن هوي أحس بشروده. فكر أنهما فعلاً في «مدينة الأرض»، سن جوي، وتساءل لماذا أطلقوا عليها هذا الاسم: أليست كل المدن مدن أرض؟

ترجلا فركض صبيان النزل نحوهما وأخذوا بأرسنة الحمير

واقتادوها إلى حيث الماء والكلأ.

أكلا وناما حتى الظهيرة (لم يعلم ياو هل طلب هوي لنفسه شيئاً آخر بعد الطعام) ثم شربا شاياً كي يفيقا فعلاً، وانطلقا.

مع الغروب قطعا نهراً صغيراً. ودخلا في طريق تخترق بساتين كثيفة من أشجار التوت. شاهدا رجالاً يُشحّلون الأغصان ويجمعونها في حزم من حبال القنب. بعد البساتين هوت الأرض نحو وادٍ. نزلا وصعدا من جديد. تذكر هوي أنهما على هذه الدرب ذاتها عبرا، قبل أسابيع فقط، لكن في الاتجاه المعاكس.

عند المساء أعدّا بعض المشاعل. وحين بات الضوء الصادر عن المشاعل غير ضروري، إذ عجّت السماء بنجوم كثيرة كرمل البحر، ألقيا المشاعل وسط الطريق الترابية.

في آخر الليل أشرفا على مدينة فاجيو المشهورة بصناعة الحرير. لم يتوقفا فيها. أكلا بعض فاكهةٍ مجففةٍ ابتاعها ياو من صاحب النزل، وانطلقا شرقاً. قال هوي:

ـ لماذا لا نرتاح قليلاً؟ المدينة على بعد يومين فقط.

أجابه ياو:

ـ نرتاح عند الظهيرة في الظلال قرب النهر.

نزع هوي قبعة القش عن رأسه وأخذ يعبث بها. ابتسم ياو. زعقت الغربان في الأعالي. رفع ياو رأسه. رآها تمضي غرباً، منحدرةً نحو السهل. تساءل من مات في هذا الفجر من العشرة آلاف شيء التي تعمر الأرض: نمر، أم ثعبان، أم جاموس، أم

فيل، أم. . .

بينما ينحدران نحو الوادي عثرا على أعشاش لطيور الحجل، فسرقا منها بعض البيض وهما يضحكان. قال هوي:

ـ تُرى ماذا تفعل الحجلة حين لا تكون في العش؟

كان العش مخفياً بين الصخور والأعشاب. فكر ياو في الثعابين الكثيرة، وتخيل ثعباناً يكسر قشرة البيضة ويمتص الصفار. دون أن ينتبه فكر في الساحر، وفي كلامه عن القطن والصوف والحرير. التفت نحو هوي وقال:

ـ اسمع، إذاً قررنا الكفّ عن الصيد! لكن لماذا نشتغل في الحرير والنسج؟ لماذا لا نصبح كالروحانيين فنصعد إلى جبل ونعيش فيه؟

فضحك هوي وقال:

ـ وماذا تفعل حِسان السهل إذا لم يكن هوي فيه؟

أشعلا ناراً. اهتم هوي بسلق البيض، فيما مضى ياو يتجول في أرجاء الوادي. بعد الطعام قد ينامان ساعة، وبعد ذلك سوف ينطلقان شرقاً، ثم شمالاً، فيعبران مضيقاً وسط الجبال، ويشرفان على السهل حيث مدينتهما. من فم المضيق لن يبصرا المدينة بل بساتين التوت التي تلفّها. تخيل ياو نفسه وقد ابتاع ـ مع هوي ـ معظم تلك البساتين، وابتسم.

فجأة سمع صوتاً في الأعشاب خلفه. التفت فرأى غزالة. لونها أزرق وعليها بقع رمادية وبيضاء. غزالة بديعة ممشوقة القوام.

نظر إلى عينيها تلتمعان بسواد رطبٍ. كاد يعانقها، حين فرّت مسرعة.

لحق بها. عَبَر معها غابة، وسقط أرضاً، وتابع الركض. أحسّ بخيط من الدم يسيل على طول ذراعه، من المعصم حتى الكتف، وفكر أنه جرح نفسه بخنجره حين سقط أرضاً. خرج من الغابة، وفتش عن الغزالة بنظره. رآها تتسلّق هضبة مخترقة العشب الطويل كالنسيم، والضوء يلمع على جلدها المصقول كالمرآة. أسرع، أحس نفسه يطير مع الهواء، كأنّه ليس إنساناً، كأنه لا يجري على قائمتين وحسب، كأن له قوائم عديدة، وفكر أنه أسرع من نمر، أسرع من فهد، وسمع صوت فيل من بعيد، ورأى الخرطوم - في خياله - يرتفع ويطرطش الماء في الهواء. قفز فوق الصخور. الغزالة تثب قدّامه. المسافة بينهما تتناقص. والهضبة كأنّها سهل أمامه. لأنّه لم يعد يركض، بل بدأ يطير، كأنّه عصفور، كأنّه صقر. طار عالياً، والعرق يطرطش حوله، عرقه وعرق الغزالة. شمّ رائحتها. قفز. أمسك بها.

تدحرج معها عند قمة الهضبة. داعبها ضاحكاً. كانت تنزلق بين يديه عرقانة، مثل سمكة أو ضفدعة، وأمسك برأسها بين يديه. نزلت نقاط الدم من بين أصابعه وسالت على أنفها. رأى رموشها، طويلة وسوداء، ورأى الهلع في عينيها. قبّلها في أنفها، ولطخ فمه بلعابها ومخاطها، وضحك لها. أخرج الخنجر.

وضع الخنجر قرب أذنها وكبسه لحظة، فنفرت من جلدها الأزرق نقطة دم. كبس جرح معصمه على نقطة الدم، وكلّم الغزالة:

ـ نحن الآن أخوة. دمي سال في دمك. ودمك سال في دمي. والآن اذهبي بدلاً مني، اركضي من أجلي وأجلك، واقفزي فوق السور العظيم.

وأطلقها.

العهد

بعد أن أطلقها وقف ونظر حوله. تحته، من حيث جاء، تباعدت صخور بيضاء وسوداء وخضراء. بعدها طريق، أو ما يشبه الطريق، وبعد الطريق الغابة. وخلف الغابة ـ يعلم لأنّه جاء من هناك ـ مرج فسيح يهبط نحو الوادي والنهر حيث ينتظره هوي.

استدار ونظر إلى الجانب الآخر من الهضبة، فرأى منظراً عجيباً. كانت الهضبة تنحدر من القمة حيث يقف، نحو سهل جميل، يعبره نهر من جانب، وتحدّه بحيرة من الجانب الآخر. كان النهر يأتي من الجبال الشمالية المقابلة (الجبال التي تقع خلفها، بعد سهولٍ وبساتين توت، مدينة كوي جوين)، فيتدفّق وسط السهل شبه المستطيل. الأعشاب الطريّة تنمو عن جانبيه، وأشجار الحور والصفصاف تظلله. رأى صفحة البحيرة ملساء وتلمع كالمرآة في أشعّة الظهيرة. ودخل الضوء في عينيه فبهره.

«كيف يمكن لبقعة بهذا الجمال أن تبقى مهجورة؟»، سأل ياو نفسه. كان يحسّ أنّه قد اكتشف أجمل رقعة على هذه الأرض. وقال لنفسه: «حتى وراء السور لن تجد غزالتي رقعة أجمل من هذه». تأمّل النهر، وانحرافه غرباً، نحو البحيرة، وتخيّل مدينة

مبنية وسط السهل، والنهر يعانقها من الشرق والجنوب. تخيّل أهل المدينة يسعون إلى البحيرة الواقعة في غربها عند العصر. ليتفرّجوا على الغروب ويرتاحوا من نهار عمل طويل. رأى قصراً يتوسط المدينة. تخيّل الإمبراطور ذاته، يصعد إلى سطح القصر، ليتفرج على مدينته. مدينته هو، مدينة ياو الجديدة، وتساءل ياو ماذا يسميها. رأى الإمبراطور يرفع رأسه، واقفاً على السطح، وينظر شمالاً، إلى الجبال الشاهقة. وابتسم.

استدار وأخذ يهبط الهضبة راكضاً. دخل بين أشجار الغابة، وخيط الدم قد جفّ على ذراعه. خرج إلى المرج الأخضر، حيث تعثّر قبل ساعة، وانحدر نحو النهر حيث هوي. هتف هوي وهو يراه ينحدر راكضاً:

ـ لماذا تأخرت هكذا؟

وصل أمام هوي. وقف لاهثاً يريد أن يخبره عن الفردوس الذي عثر عليه، عن أجمل بقعة على هذه الأرض، ولكن الكلمات ماتت على لسانه. مكث صامتاً. جلس أرضاً، أمام النار والبيض المسلوق، والسرّ يخفق بين أضلاعه، كرأس غزالة بين يديه.

كسر قشرة بيضة. كانت أصابعه ترتجف. رأى هوي الدم على ذراعه. ركع قربه وسأله ثانية ما الأمر. وقف ياو وسحبه خلفه من يده صامتاً: لا، لن يقدر أن يحجب السرّ عن هوي، لا يقدر أن يحجب فردوساً عن هوي، فكر ياو، وكان يعبر المرج، وهوي يمشي خلفه، يسأله ماذا هناك، وياو صامت، صامت طبعاً، وماذا تحكي الكلمات عن الأشياء، أليس الكلام نفخاً في الهواء، وحتى

لو كانت الكلمات مختلفة عن سقسقة الطيور فهي ليست كالأشياء، والحكيم يعلم هذا، والتفت ياو وابتسم لهوي كأنّه يقول له: «سترى ما لم ترَ من قبل أبداً».

عبرا الغابة. أخذا يتسلقان الهضبة. تعجب ياو وهو يلهث، تعجب كيف ركض كالنمر فوق هذه الهضبة المستقيمة كالجدار قبل قليل، وفهم لماذا تعبت الغزالة كما تعبت، ولماذا ذُعرت حين هوى فوقها، وفكر أنّ الغزالة قد هربت من صيادين كثيرين قبله، من نمور وفهود، تسابقهم إلى قمة هذه الهضبة التي اعتادت هي القفز فوق صخورها فيتعبون ولا يبلغون القمة ولا يحظون بها. وأما هو فحظي بها، ولذلك كان ذعرها هائلاً. وفكر أنّها الوحيدة، الشيء الوحيد بين العشرة آلاف شيء، الذي يعرف سرّه، لأنها هي أيضاً قد رأت الفردوس المحجوب خلف هذه الهضبة التي تشبه الجدار.

سمع لهاث هوي خلفه. ابتسم. تخيّل أخته الغزالة تقفز فوق السور. وتساءل هل ستشتاق إلى هذه الهضبة، وهل ستعود ذات يوم وتسرح هنا، وتنزل إلى تحت، إلى الفردوس، حيث النهر والبحيرة والعشب والصفصاف، وحيث لم تطأ قدم إنسان قط.

وقف ياو أعلى الهضبة، والتفت نحو هوي.

ظلاّ واقفين حتى المساء. انحدرت الشمس. غطست صوب البحيرة وغابت في الأفق البعيد. شاهدا الشعاع الأحمر يخترق الشجر الكثيف فوق جزر البحيرة. ورأى ياو أرانب تعبر السهل،

وشاهد سلاحف عند الضفة، وغزلان تمرح قرب شاطئ البحيرة. والتفت ورأى النهر قد أعتمت مياهه، والأسماك الفوسفورية تتهادى في الأعماق. وتأمّل أشجار الصفصاف، وأوراقها المتهدلة، وأغصانها الباكية، وجذوعها البيضاء الطويلة.

حدّق ياو بعيداً، عبر الفراغ بين أشجار الصفصاف العملاقة، فرأى في أقصى الشرق الغابات الملتفة، وقد شكلت جداراً عالياً من الجذوع والورق الكثيف. أدرك أنّ الطريق المفضية إلى المضيق الذي يخترق الجبال تقع خلف جدار الغابات. وفهم: لهذا السبب ظلّت هذه البقعة مخفية عن عين الإنسان، لهذا السبب ظلّت هذه البقعة سرّاً من أسرار السماء، فقد حُجبت بالجبال من الشمال، وبالغابات من الشرق، وبالماء من الغرب، وبهذه الهضبة ـ حيث يقف الآن مع هوي ـ من الجنوب.

تكاثفت العتمة. ظهر نصف قمر في القبة السوداء. كان أبيض تتخلّله ظلالٌ رماديّة وبقعٌ شبه سوداء. فاض النور حولهما. ورفع ياو رأسه، وفكّر أنّه يقدر أن يعدّ النجوم ـ التي لا يمكن عدّها ـ يقدر أن يعدّها على أصابع يده.

أحسّ بذراع هوي تحيط بكتفه، فمال عليه. معاً استدارا وهبطا الهضبة باتجاه الغابة.

قرب النار، بينما يأكلان البيض المسلوق، والنهر يجري على بعد خطوة، والحمير تهمهم خلفهما، تبادلا النظرات، وجدّدا عهد

الصداقة[*]. وشربا ما بقي من خمرة ياو ممزوجةً بماء النهر، وسهرا يفكران في ما شاهدا، وفي ما سوف يشاهدان.

(*) هذا «الفردوس» ـ هكذا سمّاه ياو ـ سرٌ جديدٌ يجمع بينهما.

مملكة النحل

في مسيرة يومين قطعا الطريق التي يحاذيها جدار الغابات من جهة الغرب، ثم صعدا نحو المضيق الذي يخترق سلسلة الجبال متلوياً في انعطافاته كالثعبان، وانحدرا نحو بساتين التوت، واخترقاها مسرعين، فلاحت أخيراً أبراج كوي جوين. كان الوقت ظهيرة، ومطر خفيف قد هطل عند الصباح.

دخلا من بوابة المدينة. نفخ حارسٌ في بوق، فهرع نحوهما تجار الجلود، ودُهشوا إذ لم يجدوا معهما طريدة واحدة، رقعة جلد واحدة. توجها نحو دار يتامى المحاربين حيث يقيم الرئيس العجوز شن نونغ، وهو الرجل الذي أودعا في خزينته كل ما يملكان من ذهب.

(الرئيس العجوز هو الأخ الأكبر لمعلمهما هوان نان الذي مات قبل سنوات بالحمى. المعلم حكى لهما عن اسم أخيه. قد أُعطي هذا الاسم تيمناً بـ شن نونغ «المزارع الإلهي» الذي عاش قبل آلاف السنوات. وهو المزارع الذي اخترع الزراعة وذاق نكهة مئات الأعشاب، وشرب من مياه ينابيع وآبار لا تُحصى، ليستطيع البشر أن يعرفوا أيّها حلو المذاق وأيّها مرّ، أيّها طيب وأيّها سام.

وعلى يده اكتُشف شراب الشاي. فقد كان يغلي بعض الماء في قدر في البرّية حين سقطت أوراق الشاي في القدر، فتحوّل لون الماء إلى الأحمر فالنبيذي ثمّ الأسود. ذاقها فأحبّ طعمها.

وقال المعلم هوان نان أن من عجائب السماء أن يتمّ اكتشاف خيط الحرير بعد تلك الحادثة بمئات السنوات على نحو مشابه. وحين صمت المعلم سألاه كيف تمّ ذلك، فأخبرهما:

- قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة كانت الأميرة لاي - تسو، الزوجة الأولى للإمبراطور هوانغ - تي، والتي قيل إنّها كانت امرأة من السماء لجمالها ورقتها، كانت الأميرة لاي - تسو تتجوّل في حديقة القصر وهي تشرب الشاي الساخن في كوب من الخزف الثمين، حين شاهدت بعض الشرانق البيضاء - الصفراء، ملتصقة بأوراق خضراء عريضة. التفتت الأميرة إلى وصيفاتها وسألتهن: ما هذه الشرانق على شجرة التوت؟ فقالت إحدى الوصيفتين: هذه بيوت ديدان القزّ. فاقتربت الأميرة من الشرانق فسمعت وصيفة أخرى تقول: هذه ليست بيوت ديدان، أنا أعرف هذه البيوت، هذه بيوت الفراش الرمادي. اقتربت الأميرة أيضاً، فطرق رأسها بغصن من الأغصان، فهوت شرنقة وسقطت في كوبها. كان الشاي ساخناً فذاب صمغ الشرنقة فيه، وانحل خيطها. وحين أمسكت الأميرة بطرف الخيط وسحبته اكتشفت كم هو ناعم ونحيل وطويل.

هتف ياو:

- ألم يحرق الشاي إصبعها؟

وسأل هوي:

ـ كم طول خيط الحرير؟

فأجاب المعلم أن الأميرة أحرقت إصبعها فعلاً. وأما طول خيط الحرير فيساوي محيط دار يتامى المحاربين.)

استقبلهما الرئيس شن نونغ في حديقة الشاي التابعة للدار. صنع لهما الشاي بنفسه، وبينما المياه تغلي قال:

ـ اسمعا فحين سأرمي الأوراق سوف يتبدل الصوت!

ابتسما، ذلك أنّ معلمهما كان يكرّر الشيء ذاته دوماً.

حين أخبراه بخطتهما نهض وخرج من الصالة ذات الأبواب الجرّارة المصنوعة من القماش ولحاء الأشجار. بعد دقائق رجع حاملاً أكياس الذهب، وقد نكّس رأسه خجلاً.

أخبرهما أنه يعرف صانعاً يريد بيع معمله. ذكر اسم الصانع، فعرفاه: معمله قريب من مدخل المدينة، وقريب أيضاً من السوق العمومي. التفت ياو لا إرادياً نحو هوي فابتسم.

انطلقا نحو المعمل. قال هوي إنه يعرف موقعه، وأنه دخل إليه ذات مرة، وأن آلاته في حالة حسنة. وأردف قائلاً:

ـ وأما عاملاته ففي حالة سيئة للغاية.

فضحك ياو إذ فهم أنهن تجاوزن سن الشباب.

وجدا الصانع ـ يُدعى باسم تتري الأصول هو كوجاتن ـ جالساً أمام باب معمله، في ظلّ شجرة. حين رأى الصانع هوي

عرفه فوراً، فقام واقفاً، وألقى عليهما التحية. خرج صبي من المعمل وهو يحمل لهما كرسيين.

بعد الحديث دخلا خلف الصانع للمعاينة. كان المعمل يشغل الطابق السفلي لمبنى مكون من طابقين. وعرفا أن الصانع ـ كوجاتن ـ يعيش فوق مع زوجته وفتياته.

في الداخل وجدا عاملات كثيرات موزّعات في صفين على جانبي ممر طويل وعميق ومعتم في آخره. كان المكان مضاءً بقناديل معلقة من الجدران. والأثواب تغطي الأرض تقريباً. انتشر أزيز المغازل، وفكّر ياو أنّه وسط قفير نحلٍ.

قال هوي:

ـ المكان ضيّق جداً. طويل ولكنه ضيّق، كأنّك في دهليز. إنّه يتسع لأربعين عاملة، بلى، لكن أين تجلس أنت أيها السيد الجليل كوجاتن؟

ابتسم الصانع قائلاً:

ـ في الصيف أجلس حيث جلست معكما قبل قليل. في الشتاء أجلس فوق في بيتي، وبين حينٍ وآخر أنزل وأقوم بجولة على الناسجات، وأوزّع التحذيرات على صبيان المعمل كي ينتبهوا للقناديل وكي لا يدعوا الأولاد يلعبون أمام المدخل.

ضحك الصانع واستدار ومشى نحو المخرج. همس ياو في أذن هوي:

ـ السيد المبجل كوجاتن! أيها الخبيث!

ابتسم هوي ومشى في إثر الصّانع. جلسوا في الخارج من

جديد، وبعد صمت تحدّث هوي:

ـ نشتري المعمل بالسعر المناسب ولكنّنا نريد الطابقين.

فرفع الصانع رأسه وقال:

ـ أنا أسكن فوق مع عائلتي!

أجابه هوي:

ـ أعلم ذلك. لكن المكان صغير. ونحن نريد العيش قرب مصلحتنا. أليس هذا حقٌّ؟

وقف الصانع. مضى إلى داخل المعمل. رآه هوي يزيح إحدى العاملات من دربه ثم ينحني قرب أذن عاملة أخرى ويتحدث في أذنها.

قال ياو لهوي:

ـ هل أنت مجنون؟ أم أنك لا تريد هذا المعمل؟

ابتسم هوي قائلاً:

ـ حين كنا في الداخل، عاملة واحدة تجرأت على ترك المغزل والاستدارة نحونا. إنّها زوجته. أو ربما ابنته. لا تلتفت، لكنه يكلّمها الآن. أقدر من هنا، من فوق كتفك، أن أرى نصف وجهه. هل تريد أن أخبرك ماذا يقولان؟

قال ياو:

ـ قلْ.

فقال هوي:

ـ هو يقول: «ولكن أين نعيش». هي تقول: «في كاتاي». هو يقول: «ولكن». هي تقول: «لا تكن أحمق، هناك نعيش كما كان

يجب أن نعيش منذ البداية». هو يصمت. هي تبتسم له وتضع يدها على وجهه. أعتقد أنها زوجته. والآن يستقيم واقفاً ويتحرّك صوبنا. أتريد أن أخبرك ماذا سيقول لنا؟ أم تريد أن تسمع صوته المنكسر بنفسك؟

وسمع ياو صوت الصانع، من ورائه، يقول:

ـ حسناً، متى تريدان المكان فارغاً ؟

مملكة النحل (2)

أخبره هوي أنه كان يعلم أن زوجة الصانع من كاتاي، وأنها هدّدته أكثر من مرة بأن تهجره مع بناتها إذا لم ينتقل بهن للعيش في مدينتها.

ضحك ياو وسأل هوي متى سيبدأ بجمع العاملات للقفير.

كانا قد انتقلا إلى مسكنهما الجديد، في الطابق الذي يعلو معمل النسيج، قبل يومين فقط. بعض أغراضهما ـ التي معظمها أسلحة صيد وحيوانات محنطة وجلود مدبوغة ـ كانت ما تزال في مسكنهما القديم، الواقع في الطرف الآخر من المدينة، بجوار دار يتامى المحاربين.

قال هوي:

ـ لقد بدأت فعلاً بالعمل.

فضحك ياو. ذلك أن هوي قضى الليلتين الماضيتين في الحيّ المجاور ـ حيّ البغايا. تابع هوي:

ـ أعتقد أن حياتنا ستكون ناعمة منذ الآن.

ضحك ياو:

ـ كالحرير.

قال هوي:

ـ إني جادٌ.

أثنى ياو:

ـ وأنا أيضاً.

الوقت يقارب الظهيرة وهما ما يزالان ممددين، كلٌ في جانب من الغرفة. بينهما، على الأرض، مربع الشمس، يتوسطه منقل من الفخار، وعدّة الشاي، وصحون فارغة إلاً من بعض حبّات الأرز.

قال ياو:

ـ أفكر في أن نربي دود قزّ أيضاً. نشتري بستان توتٍ وبيتاً قديماً وننتج بأنفسنا ما نحتاج من حرير للمعمل.

قال هوي:

ـ ولِمَ لا؟ فلنقم بذلك.

قال ياو:

ـ هنا معظم المصانع تعمل بالقطن، أو بالحرير الموشى بالذهب، لكنّنا نقدر أن نستخدم مواداً أخرى أيضاً. لماذا لا نصنع دروعاً مثلاً؟ الصيادون يجلبون إلى المدينة جلود جواميس بكميات وافرة. إنها عظيمة للدروع، فقط نجفّفها على النار فتصبح أصلب من الصلد.

قال هوي:

ـ ولِمَ لا؟ فلنقم بذلك.

قال ياو:

ـ نقدر أيضاً أن نستخدم وبر الجمال.

قال هوي:

ـ ولِمَ لا؟ فلنقم بذلك.

قال ياو:

ـ وريش الطيور؛ الصقور واللقالق والنسور والسماني.

قال هوي:

ـ ولِمَ لا؟ فلنقم بذلك.

قال ياو:

ـ أيضاً نقدر أن نسلخ جلدك ونصنع منه ثوب تمساح.

فقال هوي:

ـ وأما هذا فلا.

مملكة النحل (3)

خلال أشهر معدودة باتت الأثواب الخارجة من معملهما تُباع بأسعار باهظة. فقد ذهب ياو في رحلات إلى بعض المدن المجاورة المشهورة بصناعات الأقمشة، فعاد منها بعاملات خبيرات، وبمعلّمي خياطة ماهرين. كذلك فعل هوي فقد عاد من غزواته الليلية ببعض الغانيات اللواتي هربن سابقاً من معامل النسيج بسبب إزعاج أرباب العمل لهن.

ـ وأما إزعاجك فنقبله لأنه نفسه هنا أو هناك.

هكذا كنّ يقلن لهوي، وكان هوي يضحك، ويجلس مع ياو في المدخل، أو في ظل الشجرة، فيراقبان العمل النشيط، ويستمعان إلى أزيز المغازل المتواصل. ويقول هوي:

ـ إنه قفير نحل فعلاً.

فيضحك ياو قائلاً:

ـ وأنت «أمير النحل»(*).

(*) هو الاعتقاد الشائع في العصور القديمة، لا في الصين وحسب وإنما في العالم أجمع، ومفاده أن قفير النحل مملكة يحكمها ذكرٌ يتميّز عن أقرانه=

صمت هوي، ثم تكلم بعد قليل:

ـ وأنت، لماذا تضع نفسك خارج كل هذا؟ ما بك؟

هذه المرة كان دور ياو كي يسكت. فماذا يقول؟ هل يتكلّم عن أحلامه مرة أخرى؟ منذ خمسة أشهر وهو يحلم، في كل ليلة، بغزال يشرد في السهول، بطير يحلّق في الأعالي، بسمكة تغوص في الأعماق. وحين يفتح عينيه يبصر الجمرات تتوهّج في منقل الفخار وسط الغرفة، ويبصر هوي في الجانب الآخر نائماً مع إحدى العاملات، ويسأل نفسه ماذا يفعل هنا؟

أحياناً تعجبه هو أيضاً إحدى النساء. لكن هذا لا يحصل إلاّ في ما ندر. وعندئذٍ تصعد معه، ويقضيان الليل بين المضاجعة والضحك، هو وهي، وهوي ورفيقته. لكنّه في الصباح يحسّ إذ تغادره المرأة التي قضى الليلة معها، يحسّ إذ يراها تنزل السلالم إلى تحت، إلى أزيز المغازل، أنه يريد أن يموت. فجأة، من حيث لا يعلم، يأتيه إحساسٌ مريع بالقذارة، كأنه مريض، كأنّ الأحشاء ستخرج من جوفه وتندلق أمام عينيه. يفتح الباب ويفتح النافذة. يُشرع الدرفتين ويأخذ نفساً عميقاً من هواء الصباح البارد. يملأ صدره ويبحث عن الحيوانات المقدسة، عن رسوم الغيوم

= من ذكور النحل بالذكاء وبالحجم وبالقوة، وهو الآمر الناهي، فيجعل الإناث يخرجن لجني رحيق الأزهار لصناعة الشمع والعسل، ويجبر الذكور على حراسة القفير من أي عدوان. وأما وظيفته المقدسة فهي تلقيح الإناث للمحافظة على النسل. (انظره كتاب «العشرة آلاف شيء» للصيني نونغ. و«طباع الحيوان» لليوناني أرسطو طاليس. و«عجائب المخلوقات» للفارسي الذي كتب بالعربية العلامة القزويني. وكتاب «حياة الحيوان الكبرى» للإمام الدُميري من القرن الثالث عشر للميلاد.)

وهي تعبر السماء، فلا يجدها، ويتقهقر متراجعاً.

يريد أن يتحرّر ذهنه من جميع الأفكار. أن يصبح مثل هوي، ساكناً كالمياه الراكدة. هوي ساكن في اضطرابه، كما قال الغابرون. يمشي والضجة حوله كالهالة حول القمر، لكنّه في الأعماق لا يضطرب. يسطو على دور البغاء، يسرق منها أجمل النساء، ويجيء بهنّ إلى مملكته. يستأجر لهنّ المساكن، في غرفة صغيرة يجمع عشراً منهنّ، يدربهنّ على أعمال الغزل، على الخياطة، على التمويه بالذهب، ويدفع لهنّ ضعف ما يدفعه القوّادون.

هوي هكذا. قبل أيام اصطحبه إلى متجر قريب، متجر واسع، وقال إنّه يفكر في شرائه، في التوسع، ويفكر أيضاً في المشروع الذي اقترحه ياو: «بساتين التوت والبيوت لتربية دود الحرير».

ضحك ياو وقال إنّه كان يمزح. أجابه هوي:

ـ كنت تمزح أيضاً ونحن نتسلّق جبل كويي حين قلت تعال نبدّل مهنتنا لأنّ الطرد والقنص يخبلان العقل، أنسيت؟

كيف يصبح مثل هوي؟ هوي المليء بالحياة، والذي بات يشبه الحكماء: «حركته راسخة صافية. جبهته تشعّ بالبساطة. بارد كالخريف. دافئ كالربيع. وانزعاجه وارتياحه يأتيان عفواً كالفصول الأربعة».

ياو ذهب إلى الرئيس شن نونغ وحدّثه. الرئيس أعطاه لوحة رُسمت عليها شجرة وطريق. في جانب اللوحة كلمات من كتاب تشوانغ تسه. قال الرئيس:

ـ خذْ هذه اللوحة. اتركها عندك أسبوعاً، شهراً، أو شهرين،

تأملها كلّما غضبت، كلّما عذبتك الأفكار.

كلمات الحكيم تشوانغ تسه كانت تصف «المعلم العظيم».

حين قرأها ياو أصابه الذهول: هذه الكلمات تنطبق على هوي.

حين فكر في هذا ـ في أنّ هوي ربما كان يشبه المعلم العظيم ـ ازداد اضطراباً.

ذهب حاملاً اللوحة إلى الرئيس شن نونغ. جلسا يشربان الشاي الأخضر. سأله الرئيس:

ـ ألم تساعدك اللوحة؟

أجابه ياو:

ـ لا أدري.

قال الرئيس:

ـ قال الأقدمون: عقل البعض يخمل كما تتحلّل الأشياء في الخريف والشتاء.

نكس ياو رأسه محدّقاً إلى أصابعه وإلى البخار المتصاعد من كوبيّ الشاي. تابع الرئيس:

ـ حين كنت صغيراً كنت تسطو على بيوت العنكبوت. أنت وهوي. أتذكر؟ هنا، في حديقة الدار، رأيتكما. تجمعان النسيج الذي يشبه الغبار الأسمر في علبٍ من الخشب وتركضان. أنا لم أكن أعلم ماذا تفعلان بها. ثم علمت أن هوي يبيعها للعشّاب. العشّاب يستخدمها لمداواة الجروح، وهوي يأخذ ثمنها ويهرع إلى السوق.

نظر ياو إلى الرئيس. ظل الرئيس صامتاً، فسأله ياو:

ـ قل لي ما تريد أن تقول أيها المعلم.

رشف الرئيس من الكوب. نظر إلى الخارج، إلى أشجار الكرز وقد إمتلأت بالزهور البيضاء، وقال:

ـ الحبور والسخط، الأسى والسرور، القلق والأسف، التقلّب والعزم، الشدّ والإرخاء، هذه كلها تأتي كالموسيقى الصائتة من أنبوب فارغ. تتعاقب نهاراً وليلاً في داخلنا ولا ندري متى تنبثق. أفي وسعنا أن نتوقّع في اللحظة إدراك كيف توجد؟

التفت ياو أيضاً نحو شجرة الكرز، فبدا له أن الكلمات تصدر عنها لا عن الرئيس المعلم. تابع الصوت:

ـ الذي يبكي في المنام قد يخرج صباحاً للصّيد. وهو حين يحلم لا يدري أنه يحلم. وإنّما يعرف بعد أن يستيقظ. وشيئاً فشيئاً تجيء اليقظة الكبرى وعندها ندرك أن الحياة نفسها هي حلم كبير. يظن المعتوه في كل لحظة أنه في يقظة وأنه من أهل المعرفة. يا للبلاهة. أنت وأنا كلانا في حلم. وحين أقول أنك تحلم فأنا أيضاً أحلم. هذا القول يسمى مفارقة. ولو أننا لقينا بعد عشرة آلاف سنة حكيماً يعرف كيف يشرحها لنا لكنّا كما لو أننا لقيناه في وقت قصير جداً.

سكت الرئيس. نكس رأسه وأغمض عينيه. فكر ياو أنه قد أخلد إلى النوم. المعلم هوان نان كان يفعل هذا دائماً. يترك رأسه يقع على صدره، يسمع الكلّ ارتطامة الذقن القاسية بعظام الصدر،

ثم يتعالى الشخير. وحتى الهوام حين تلسعه لا توقظه. إلاّ إذا شاء القيام.

نهض ياو. قبل أن يغادر ألقى نظرة أخيرة على اللوحة. تأمّل أغصان الشجرة. وتأمّل الطريق. الرسم كان بالحبر الأسود. القماش كان أسمر اللون. «أهذه شجرة كرز في الشتاء؟»، تساءل ياو، «وهذه الطريق أهي مضيق بين جبلين؟ أم هي رمز، رمز التاو الأول الأبدي؟».

أحسّ بيد على كتفه. التفت. كان ما يزال جالساً مع هوي، على الدرجة، في مدخل المعمل. ونظر إلى إحدى العاملات، وكانت تلتفت في هذا الاتجاه وتبتسم. وفكّر أنّ الضوء بات قوياً في الداخل منذ أن فتح هوي نافذة في الجدار البعيد. وقف ليخلّص كتفه من قبضة هوي وتراجع حتى جذع الشجرة. قام هوي ولحق به وسأله:

ـ لماذا لا تكلّمني بما في صدرك ياو؟

احتار ياو كيف يهرب من الجواب. تذكّر حديثاً دار بينه وبين أحد تجار الحرير قبل أيام فقال:

ـ اسمع هوي: إنّك تجمع الأعداء كما يجمع بيت العنكبوت، أو ضوء السراج، الهوام. تشيبه كوان، تاجر الحرير الذي كان هنا قبل أيام، قال لي أنّ التجار كلّهم باتوا يضمرون لنا الشرّ. والرجال في السوق العمومي، أصحاب الدور الكبيرة، يقولون أنّهم سيرفعون عريضة إلى الحاكم بخصوص النساء التي سرقت من. . .

قاطعه هوي:

ـ لا تفكّر في هذه الأشياء. لن يفعلوا شيئاً.

قال ياو:

ـ الحسد يقتل. يجب أن نحذر.

سأله هوي:

ـ ما بك ياو؟ قل لي فعلاً ما بك؟

فكرّ ياو أنّه لم يعد يقدر، فاستدار مسرعاً، ومضى.

... عابرين في حب إمرأة

الوقت عصر. وهما يشربان خمرة الأرز بصمتٍ. إلى جوار ياو قماش مشدود من جوانبه بإطار من القصب. إنها لوحة بلا رسم. تأمّلها هوي، تأمّل المساحة السمراء الفارغة، ونظر إلى الريشة ودواة الحبر في يد ياو. سأله:

ـ ماذا سترسم؟

ضحك ياو، شرب من كوبه الخشبي، وأجاب بسؤال:

ـ أقدر أن أرسم سوراً. أقدر أن أرسم نمراً. أقدر أن أرسم كهفاً. أقدر أن أرسم طريقاً. أقدر أن أرسم شجرة. أقدر أن أرسم إمرأة. أنت ماذا تريدني أن أرسم؟

سكب هوي المزيد من الخمر في الكوبين. دخل الهواء الربيعي البارد من الباب والنوافذ وحرّك الستائر الرقيقة. قال هوي:

ـ أتقدر أن ترسم الشتاء إذا كان قصيراً؟ هذه السنة دام الشتاء أقل من شهرين. والخريف كان أقصر منه. أُحسّ أن الصيف انتهى في البارحة وحسب. أُحسّ أننا في هذا الصباح، لا، بالأمسِ،

دخلنا المدينة بلا طرائد، وسحبنا أكياس الذهب من الرئيس، وجئنا وابتعنا هذا المكان، بالأمسِ فقط.

قال ياو:

- هي سبعة أشهر مضت عليّ كسبعة قرون.

صمت ياو. أراد هوي أن يضحك. ودّ لو يستطيع لكنّه لم يقدر. يعرف الدودة في قلب صديقه، الدودة لن تغادره.

رغم ذلك تكلّم:

- حين بدأنا كنت متحمساً. هل نسيت كيف مضيت إلى المدن تجمع منها صناع القماش و...

قاطعه ياو:

- لم أنسَ. لكن ذلك انتهى.

فسأله هوي:

- والآن، ماذا تريد؟

حدّق ياو إلى المساحة الفارغة المؤطرة بالقصب اليابس. هذا القماش مصنوع من القطن ومن لحاء أشجار يظل ينسى اسمها. وتذكر ولع هوي بالأسماء، وكيف أنه يعرف أسماء جميع العاملات تحتهما وأسماء كلّ الزهور في الصين و... قال ياو:

- الآن أنظرُ إلى هذه اللوحة ويعجبني الوجه الذي رسمته.

فسأله هوي:

- أي وجه؟ لم ترسم شيئاً. أين الوجه؟

فضحك ياو:

- الحكيم لا وجه له. أليس كذلك؟ وها أنا قد رسمته.

تراجع هوي حتى الجدار. كأنّه يتحرّك وسط الضباب. استند بظهره إلى الحائط، وترك ساقيه تسيلان تحته كجدولي ماء حتى ارتطمت مؤخرته بالأرض. رفع رأسه، نظر إلى ياو، انتظر قليلاً، ثم أخذ نفساً عميقاً، وسأله:

ـ أتريد أن ترحل؟

في تلك اللحظة جاء صراخٌ من الشارع. وسمعا صوت العاملات.

قفزا السلالم إلى تحت. وجدا فتاة تتعارك مع رجل، وشاهدا العاملات يحاولن إنقاذ الفتاة من بين يديه، أو إنقاذه هو من بين يديها. كانت تتمسك بشعره المجدول في ضفيرة بيضاء طويلة، وتلفّها حول ذراعها، وتنطحه في وجهه، وتركله بين ساقيه. اختلطت الضجة بالضحك. وأخيراً فرّ الرجل. جاء الحراس راكضين. انتزعوا الفتاة الممزقة الثياب من أيدي العاملات، وجرجروها خلفهم.

لحق هوي بهم وتبعه ياو. في مركز الحراس تبادلا الكلام مع العريف المسؤول. فسمح لهما بالدخول ورؤية الفتاة. كانت الفتاة مرمية في الزاوية، تشرب الماء من جرة فخار وتبكي. سألها العريف من هي، ومن أين جاءت، وماذا تفعل هنا. لكن الفتاة لم تجبه بشيء.

الدم يسيل من يديها وقدميها، جسدها معفرٌ بالتراب، والثوب الأخضر بالكاد يغطي لحمها. اقترب أحد الحراس وزعق بها. تراجعت إلى الزاوية تريد أن تدخل كالعنكبوت في الجدار، ثم

أبانت عن أسنانها. قال العريف:

ـ انتبه سوف تعضك!

تراجع الحارس ثم قفز فوقها بغتة وركلها. في لحظة خاطفة طار ياو وحطّ فوقه. قفز العريف صوبه ولكن هوي أمسك به. هتف هوي:

ـ كفى!

كان ياو قد لطم الحارس فأسقطه أرضاً وركب على صدره. وحين سمع صرخة هوي التفت فرآه يعارك العريف.

تكلّم هوي من جديد:

ـ الذهب حين يبرق يمحو كل إساءة.

وأخرج كيساً من ثوبه، ودفع يده داخل الكيس، ثم أخرجها تلمع بغبار التبر. تابع قائلاً:

ـ هذا ليس رملاً. والذهب ذهب.

نهض ياو عن الحارس، مضى نحو الفتاة، وأخرج منديلاً من جيبه. أعطاه لها فمسحت به وجهها. تلطخ المنديل بالدم. رأى ياو الجرح في جانب فمها. تذكر ـ في برهة خاطفة ـ تلك الغزالة التي عانقها عند قمة الهضبة.

حين سمع الضجة خلفه التفت. سمع العريف يقول إنّ رجاله قبضوا على الرجل الذي كان يضرب الفتاة، فهل يريدان أن يتكلما معه؟ أعقب العريف كلامه بنظرة إلى كيس هوي الذي فرُغ نصفه في لحظات.

الرجل، صاحب الضفيرة البيضاء، تكلّم وهو يتوجّع من آثار

الأظافر في عنقه ووجهه. قال إنّه وجد الفتاة في الصحراء قبل أيام. يبدو أنّها كانت مع أهلها حين هاجمتهم الضباع. والكلّ ماتوا. هو رأى الهياكل. رأى الغربان أولاً. ثم الديدان. ثم الهياكل. ووجد الفتاة في أعلى شجرة. سأله العريف:

ـ شجرة في الصحراء؟

أجابه الرجل:

ـ صحراء فاجيو. القريبة من الغابات. ألا تعرفها؟

سأله العريف:

ـ وبعد ذلك!

قال الرجل:

ـ اعتنيت بها. أطعمتها طعامي، ومن شرابي سقيتها. ولم ألمسها. قلت أجيء بها إلى هنا وأبيعها أو...

تقدّم هوي منه. أمسك وجهه بيدٍ، ودفع بحفنة تبرٍ في فمه باليد الأخرى. وما بقي من ذهب في الكيس دفع به إلى العريف قائلاً:

ـ يُوجد من هذا الكثير. أُريد الفتاة.

أخذا الفتاة. قبل أن يخرجا بها من مركز الحراس جعلا العاملات ينظفن وجهها قليلاً، ويضعن على جسمها ما يسترها. بينما يغادران هتف العريف لهوي:

ـ أين ستجعلها تسكن؟

أجابه هوي:

ـ مع العاملات.

ضحك العريف. ابتسم هوي له، وفكر أنه، ذات يوم، قد يقتله. التفت ياو نحوه، كأنه قرأ أفكاره، وشدّ قبضته.

في البيت سخّنوا الماء في القدور وملأوا المغطس الخشبي. العاملات رجعن إلى المغازل، ولم يبقَ منهن مع ياو وهوي إلاً واحدة فقط. كانت في الأربعين، تُدعى ماو تشيانغ، وهي العاملة الوحيدة التي عملت في المعمل منذ البداية، منذ أيام الصانع كوجاتن. تعامل ياو كأنه ابنها، وهوي كأنه زوجها. كانت فعلاً تغضب من هوي كلما نام مع إحدى العاملات، وتهدّده بهجره. فيضحك هوي قائلاً:

ـ لكنّك لست زوجتي.

فتجيبه:

ـ إذاً أترك المعمل وأسافر.

والآن راقباها تنزع عن الفتاة ثيابها. توقّعا أن تخجل الفتاة وتمانع، بسبب من وقوفهما على بعد خطوتين. لكن الفتاة بدت كأنّها غير شاعرة بجسمها، غير شاعرة بهما، غير شاعرة بكلّ الأشياء البرّانية، وغير شاعرة بحضورها ذاته.

شاهداها تترك لماو تشيانغ أمر اقتيادها نحو المغطس. تفرّجا على جسمها الكامل، على الاستدارات الكاملة، على لون البشرة الكامل، على ملامح الوجه الكاملة. فكر هوي ـ الذي عَبَر الصين

متمرغاً في الأجساد ـ أنّه لم يرَ جسداً أجمل من جسدها. أغمض ياو عينيه إذ أحسّ باضطراب غريب في أعماقه فيما قفزت الكلمات إلى رأسه، فالكلمات التي قد لا تعني أي شيء في معظم الأحيان، كانت تعني كل شيء في تلك اللحظة. وكانت الكلمات واضحة: هذا الاضطراب في أعماقه هو الاضطراب في السكون، هو الحركة السرّية للمياه الراكدة، هو السلام الذي طالما بحث عنه، هو الشيء الذي أراده منذ البداية دون أن يعرف له اسماً، ودون أن يرى له وجهاً، ودون أن يسمع له صوتاً يدلّ عليه. وها هو الآن يبصر الوجه، ثم يسمع الصوت وهو يلفظ الاسم، ذلك أنها تمددت وهي تذوب لذةً وسط الماء والبخار وأعلنت في صوت كامل يشبه موسيقى السماء، أنها تُدعى لي تشي.

اقترب هوي خطوة. كانت ماو تشيانغ تمسح على العنق بالليفة وبالصابون الفوّاح الرائحة، وصوت المغازل يتلاشى في الأسفل، إذ أقبل المساء، وحان وقت إقفال المعمل. سألها هوي:

ـ من أين أنتِ لي تشي؟

أجابت:

ـ من... لا أدري.

تقدم ياو أيضاً، نظر جانباً وقد أطرق برأسه، وسألها:

ـ وأين أهلك؟

أجابت:

ـ في... لا أدري.

ضحكت ماو تشيانغ، تلك الضحكة الحنونة التي لا تصدر إلاّ عن النساء، وسألتها:

ـ ألا تعرفين اسم مدينتك لي تشي، ألا تعرفين اسم عائلتك؟

هزت لي تشي رأسها. رفعت حفنة من الماء في يدها، جعلتها تنزل في خيط فوق جسمها. قالت:

ـ لا أذكر شيئاً. أذكر إسمي فقط. وذلك الرجل الذي تعاركت معه فأخذوني من أجله، ذلك الرجل يكذب، لقد التقيت به هنا، أمام بوابة المدينة، لا في الصحراء كما قال، لا فوق شجرة. إنه يكذب.

سألها هوي:

ـ ولكن من أين جئتِ؟

فكرّرت بالصوت الهادئ نفسه:

ـ لا أدري. أذكر الاسم فقط: لي تشي. وقد لا يكون إسمي، لا أعلم. وأذكر أنني في الإمبراطورية، وأقف أمام سور هذه المدينة، وهذا الرجل يأتي ويتعارك معي. رآني وسألني ماذا أفعل فبقيت صامتة. أعتقد أنه حسبني مخبولة وخرساء فقرر أن يبيعني في سوق مدينتكم. لا أعلم. لكني أحب هذا الاسم: لي تشي. وربما هو اسمي.

قال ياو من العتمة المحيطة به فيما ماو تشيانغ تشعل السراج قربها:

ـ لي تشي كانت من أجمل نساء الأرض. الحكيم تشوانغ تسه قال إنها كانت من السماء.

ضحك هوي:

- لم يقل إنها من السماء. قال جميلة كالسماء.

وضحكت لي تشي أيضاً، فيما أخذت ماو تشيانغ تفرك شعرها الأسود القصير كشعر الصبيان بالصابون.

بعد قليل انسحبا بطلب من ماو تشيانغ إلى الغرفة المجاورة. جلسا في العتمة، على الأرض، واستمعا إلى الضحكات الصغيرة القادمة عبر الباب الموارب. عبر شق الباب أيضاً جاءت إليهما رائحة الجسد العاري، والصابون، والمياه التي امتزجت بعرق الجسد ومائه. قال هوي هامساً:

- أليست أجمل امرأة على سطح الأرض؟

بلع ياو ريقه، أحس بنار تكويه من الداخل.

قال هوي:

- لن تصدقني، ولكني في حياتي كلّها لم أحب إمرأة من أعماقي.

وأدرك ياو أنه الظلام. الظلام الدامس أخيراً. والضياع الذي ليس بعده ضياع. وسمع الصوت، صوت هوي، يتسلّل إليه مثل أفعى في العتمة، فيلتف حول عنقه، ويربض بكل ثقل الكلمات - المنطوقة في جوف الظلام - فوق قلبه. وأحس ياو أنه لا يريد إلاً شيئاً واحداً: أن يموت، أن يموت في هذه اللحظة، وقبل أن ينتهي هوي من اعترافه الرهيب. ثم انتبه: لا، لا يريد أن يموت، إذا مات الآن فكيف سيرى لي تشي بعد اليوم. إن الموت يعني

أيضاً عدم القدرة على النظر، على الإبصار، من جديد، وهو لا يريد هذا، فهو لا يريد إلاً النظر إلى هذه المرأة، إلى لي تشي، النظر إليها والحلم بلحظة إمتلاكها، والحلم بامتلاكها إلى الأبد. لا، لا يريد الموت. ولكن ها هي كلمات هوي تكويه بالنار. وسمعه يقول:

ـ لن تصدق ياو ولكني أريد أن أتزوجها، أن أتزوجها الآن.

عندئذٍ أدرك ياو ماذا يريد، بلى يريد شيئاً واحداً وحسب، ولكن ذلك الشيء ليس هو الموت، لا، إنه يطلب شيئاً آخر، شيئاً يعرف أن السماء لن تمنحه إياه قط، لأن ما حصل قد حصل، فهو ملعون إذاً، وطلبه مرفوض عند السماء. وخرجت الكلمات من أعماقه كالبكاء، كاللهاث، كالحشرجة، كأنها صلاة وليست هي بصلاة، لأنه يعلم سلفاً أنها لن تتحقق. وسمعه هوي صارخاً:

ـ ليتني لم أُولد قط.

التحذير

مشى ياو نحو دار يتامى المحاربين وجميع أنحاء جسمه تؤلمه. أحسّ نظرات الناس مركّزة عليه فأسرع خطواته. كانت الشمس تنحدر نحو الأفق، وهواء العصر البارد يهبّ ويخبط ظهره. أحسّ بالعرق كالثلج على عنقه. ومضى يشقّ طريقه بين النّاس والحمير والعربات.

وجد الرئيس شن نونغ مريضاً. قال له الخادم إن الرئيس مريض منذ أيام. اعتذر ياو واستدار ليذهب فسمع الصوت الضعيف من الداخل. قال الخادم:

- انتظر، الرئيس يطلب أن يراك.

وضعوا له حشية على الأرض. قرب فرشة الرئيس الذي تغطى ببطانيات الصوف. فكّر ياو أنّ المرض قد بدّل وجهه. لونه الأصفر بات يميل إلى بياضٍ قاتم، والتجاعيد تكاثرت حول عينيه وفي جبهته. لم يرَ لون شعره لأنّ رأسه كان ملفوفاً بعصابة. نظر الرئيس إليه بعينين متعبتين، وسأله كيف هوي؟

هزّ ياو رأسه دون أن يقول شيئاً. دخل الخادم حاملاً صينية

وُضع عليها كوب شاي. بعد قليل تكلّم ياو:

ـ ما كنت أعلم أنّك مريض.

ابتسم الرئيس. رفع البطانيات حتى عنقه، ومال بوجهه جانباً كي لا ينفخ أنفاسه المريضة في وجه ياو، ثم قال:

ـ منذ فترة أعلم هذا. جسدي لم يعد كما كان. يولد الإنسان رقيقاً واهناً، ويموت صلباً يابساً. يبدأ النبات غضاً مترعاً بالنسغ، ويموت ذابلاً جافاً. جسمي منذ فترة بات يابساً. والحكيم لاو تسه أخبرني، أعني أخبرنا، أنّ اليابس وغير المنحني قرينان للموت.

ظل ياو صامتاً، فتكلّم الرئيس مرة أخرى:

ـ في المرّة الماضية حدّثتك بلسان تشوانغ تسه. وها أنا أحدِّثك بلسان لاو تسه. وهذا كلّ عزائي الآن. إنّي أرحل عن هذا العالم هادئاً ساكناً كما رحلا.

شرب ياو من كوبه صامتاً. التفت الرئيس صوب الناحية الأخرى، صوب البوابة العريضة الموصدة، وأشار إليها قائلاً:

ـ أريد أن أرى الشجرة.

نهض ياو وجرّ البوابة الخفيفة.

من جديد مكثا صامتين. ياو يشرب آخر ما في الكوب، والرئيس يحدّق إلى الشجرة التي تساقطت زهورها فصنعت فراشاً أبيض فوق الأرض. أشار الرئيس إلى البراعم الخضراء التي بدأت تشقّ طريقها إلى نور الشمس، وسأل ياو:

ـ ألا تشمّ رائحتها؟

حين لم يأتِهِ الجواب، كفّ عن التحديق إلى الشجرة،

وسعل. التفت نحو ياو، وأمره:

ـ تكلمْ. قلْ ما في صدرك.

خرج صوت ياو نقياً كالسلسبيل:

ـ ما عدت أشمّ رائحة غير رائحتها. الأزهار تلاشت رائحتها. العشب تلاشت رائحته. اللبن كذلك. والبصل والثوم والتوابل. والكمثرى والزبيب والخوخ. والجزر والقصب والقرع. كلّ الروائح المفردة تلاشت، تداخلت وامتزجت وصنعت رائحة واحدة هي رائحتها، هي روائح العالم مجموعة في رائحة. هل تصدقني؟ وأنا لا أريد غير هذه الرائحة، وأن أغرق فيها ولا أخرج منها أبداً. حين تعطيني قصعة اللبن بيدها أشمّ أقوى رائحة لبن، رائحة بيضاء ناصعة. حين تزرع السوسن حول فراشنا لتبعد البعوض، أشم رائحة الزهور زرقاء خضراء وصفراء كما لم أشمّها من قبل أبداً. ومعها، حين تكون لصقي في الفراش، ويدخل علينا ضوء الشمس، أرى كل شعاع من أشعته على حدة، كأنني أنظر إلى نهر وأفصل خيوط الماء بعضها عن بعض كما تُفصل خيوط النسيج. والهواء، حين يلفح الهواء وجهي، عند المساء، وهي تتمدّد إلى جانبي، أحسّ الهواء قادماً من الغيوم، كلّه قطن وحرير، ليمسح قطرات العرق عن جبهتي ووجهي.

ارتعش صوت ياو، تخللته بحّة، ثم اضمحل. رأى الرئيس الآلام التي تشوّه ملامح وجه ياو، فقال:

ـ أعلم كل شيء. المدينة تتكلّم. منذ أيام تتبادلانها. تقول المدينة إنّ لها روح طفلة، تلك المرأة التي تُدعى لي تشي، ويُقال إنها أحبّتكما فوراً ما أن رأتكما في مركز الحراس.

حين يكون دورك يغادر هوي المنزل عند العصر. أحياناً يغادر إلى المدينة المجاورة. أحياناً يذهب إلى خليلاته في السوق. حين يكون دوره تغادر أنت، تتركه معها، وتذهب إلى البيت المتهدم قرب بساتين التوت، تتفرّج على الدود الشره يزحف فوق الورق الأخضر، وتتخيّل هوي معها. في البدء فكّرت أن تنام تحت، في المغزل المقفل خلال الليل، ثم أدركت أنك لن تستطيع. لن تستطيع البقاء جامداً، وهما فوقك، وصوتهما يأتي إليك. المدينة تتكلّم. لا أنت تقدر أن تتخلى عنها له، ولا هو يقدر أن يتخلى عنها لك. المدينة لسان حسد نال مطلبه أخيراً. أخي هوان نان الجليل جاء إليّ في المنام وقال إنّ لي تشي مصنوعة من حسد المدينة ومن بغض الناس لصداقتكما ولقدرتكما على القيام بأي شيء. هذه مدينة ملعونة، قال لي أخي. ومنذ ذلك اليوم وجسمي يتركني وييبس كالشجرة التي ضرب جذعها السوس وأكل جذرها الخلِد. وغداً تخرج الروح من فمي. لا أقول إني أعترض، لا. من بعدي ستزهر شجرة الكرز. من بعدي سيقع مطرٌ على الأرض. من بعدي كل شيء سيكون كما كان. لكنني سأكون في أعماق كل شيء. فالتاو هو قانون الأشياء. هو البسيط. وحين ستنطفئ النار في جسمي سأرجع إلى البسيط. أرجع حفنة من غبار.

تكلم ياو:

- قبل سبعة شهور، حين غبتُ وهوي عن المدينة لأكثر من شهر، ورجعنا وأخذنا منك الأمانة واشترينا المعمل، هل تعلم أين ذهبنا؟ ذهبنا إلى جبل كويي، وتحدثنا مع الساحر. كنا نريد تفسيراً لرؤيا فاعتصم بالصمت، وأحاط نفسه بالعتمة، وأخفى بدنه عن

عيوننا، متحدثاً بكلماتك ذاتها.

سأله الرئيس:

ـ ماذا قال؟

أجابه ياو:

ـ لستُ إلاً حفنة من غبار. لحظة وتملأ ثوباً. لحظة ويبدّدها الهواء.

ابتسم الرئيس. بعد فترة صمت، إرتسم حزنٌ على وجهه، وقال:

ـ الكلمات تشبه الريح والموج. والغضب ينتج عن الكلمات المفنَّنة والكلام المنحاز. وحين يستبدّ الغضب بالناس تنفجر تعابيره كغمغمة حيوان في سكرات الموت. تغدو أنفاسهم متسارعة ومسموعة. وتطفح العداوات. كلمات كونفوشيوس تتحدّث عن الآن وعن الـ هنا أيضاً. لأنها تتحدث عن كلّ زمان ومكان. لأنّ الإنسان هو الإنسان. هل تسمعني؟ هوي أهان الحراس حين دفع التبر في أيديهم معلناً أنّ لديه من التبر أكثر من كثير. وأنت أهنت الذي ضربت حين تركته دون كلمة. ومعاً كنتما في كل يوم، منذ بدأتما العمل، تهينان أهل المدينة. حتى الإمبراطور لم يفعل هذا. هوي جمع الخليلات دون أن يتزوج ولو واحدة منهن. المدينة لن تغفر له. الإنسان هو الإنسان. يريد ما لا يملك، فإذا لم يملكه نظر إلى مالك الشيء وتمنّى له الأذى، تمنّى له الموت. هذا هو الحسد. هذا هو الإنسان. أشجار الجبل تسبب القطع لنفسها. الشحم يجلب لنفسه النار. وهوي أفسد فضيلته بالتوق إلى الشهرة، فبات كالشجرة التي تتغاوى بجمال خشبها فيهرع إليها الحطابون

بالفؤوس. يريد أن يصنع أجمل الأثواب، وأن يبيعها بالثمن الأبهظ، وأن يجمع حوله ما يرغب من نساء. والناس إذا تصادموا على الشهرة دمر بعضهم بعضاً، فالمعرفة تُتخذ عندئذٍ سلاحاً في الخصام، وتغدو أداة شر مفزعة. كل التجار وأصحاب معامل النسيج باتوا يبيتون الشرّ لكما. وفوق ذلك تأتي عداوات هوي الكثيرة مع أرباب السوق العمومي. أخطأ هوي حين لم ينتبه. وأخطأت أنت أيضاً. أن لا تنتبه يعني أيضاً أن تؤذي الغير. ومن يؤذي الغير يأتيه الأذى من الغير وقد تكون هذه هي نهايته.

سكت الرئيس وأغمض عينيه. بدا كأنه سيلفظ أنفاسه. الكلام أنهكه. رأى ياو البطانيات تعلو وتهبط وسمع صوت القلب الذي يقفز بين أضلاع الرئيس العجوز. وسأله:

ـ لكن ماذا سيحصل؟

فتح الرئيس عينيه. رأى ياو أنّ اللون الأصفر قد كسا البياض حول البؤبؤين، ثم سمع الصوت المتعب يقول:

ـ من يدري ماذا يخبئ المستقبل؟ حتى الحكيم لا يعرف الجواب.

دخل الخادم يحمل على صينية كوباً آخر من الشاي. وضع الصينية أرضاً، وأسرع بخطى صامتة إلى البوابة المفتوحة ليوصدها. نظر ياو فرأى أن العتمة قد غطّت الشجرة وفراش الزهور الأبيض تحتها. قام واقفاً، بينما الخادم يجرّ البوابة فيفصل الخارج عن الداخل، مبعداً الهواء وأصوات الجنادب.

لكنّ الرئيس أخرج ذراعه اليمنى من تحت البطانيات وأشار إليه بالجلوس مهمهماً. وحين جلس ياو، وخرج الخادم وهو ينحني متراجعاً، كلّمه الرئيس بصوت ضعيف:

ـ أعلم ماذا قرّرتما. أعلم أنكما حدّدتما الموعد. لكن ما تفعلانه خطأ. الآن تشعران أنّ هذا هو الحل الوحيد. ولكن هذا خطأ. هناك حلول أخرى، غير منظورة لعيونكما الآن، ولكنّها موجودة. الصبر مُرّ. أمرّ من مرارة الطيور، أمرّ من ماء الصحراء، ومن الأفسنتين(*). أعلم. لكنّه الطريق الوحيد. وإلاّ حلّت اللعنة.

ظل ياو صامتاً، فتابع الرئيس:

ـ اللعنة سوف تحلّ على المدينة كلّها. المدينة قلبها حجر كالسور الذي حولها. لا أحد يعلم لماذا سدّدت السماء خطى المرأة التي تُدعى لي تشي نحو سور هذه المدينة. بعض الأمور لا تحبّها السماء. من يدري لماذا؟ وربّما هذا ما يحصل الآن. السماء غاضبة على مدينتنا. وأنتما خلاصنا ولا تعرفان.

سأل ياو:

ـ الخلاص؟

فتكلّم الرئيس:

ـ في المنام جاء إليّ رجلٌ يحمل عصا في يده، ثوبه ممزق وعلى ذراعيه آثار حريق.

قاطعه ياو:

(*) صنف من الأعشاب، مفيد للهضم، وطارد للديدان.

ـ هو الراعي. أنا وهوي نمنا عنده ليلة في زريبة، وهو الذي حدَّثنا بما لم يحدثنا به الساحر، فجلب السكينة إلى قلب هوي وقلبي آنذاك.

ابتسم الرئيس قائلاً:

ـ ذلك الراعي كان السَّاحر نفسه.

حملق ياو في وجه الرئيس، هتف:

ـ كيف؟

أجاب الرئيس:

ـ موّه جسمه بالنار: غطى جلد ذراعيه الذي يشبه جلد الفيل بالحروق، وترك الدخان يمتزج بلون عينيه حتى تحوّل اللون الأخضر إلى أسود. السحرة يفعلون هذا. لذلك يقول لاو تسه أنّ الحكيم لا وجه له وتشوانغ تسه يتكلّم عن الحكيم الذي يتحوّل إلى حرباء.

همس ياو خاشعاً:

ـ أول ما رأيته، قرب النار، سمعت صوتاً خافتاً في داخلي ينبهني. ولكني حين رأيت عينيه ثم ذراعيه، مِلت بأذني عن ذلك الصوت.

فقال الرئيس:

ـ ذلك كلّه غير مهم الآن. دعني أخبرك بما رأيت.

قال ياو:

ـ إني أسمع.

فتكلّم الرئيس:

ـ لا أعلم متى رأيت المنام. قبل أيام معدودة. كنت في الحمى، وكنت أفكّر في أخي وكيف ذاب في الحمى. كالحطب احترقت عظامه. وحين حملناه إلى ضفة النهر أحسست أنّ أطرافه ستقع عن جذعه كما تقع قوائم الدجاجة عنها حين نسلقها طويلاً فوق النار. وبكيت. بكيت في المنام وتذكرتكما. أنت وهوي، وهذه المرأة، لي تشي. ورأيتها، كما وصفتها لي الألسنة، ألسنة الخدم والحرس والكهنة والتجار والأولاد. ما بقي أحد في المدينة إلاّ وكلّمني عنها. منذ أن دخلت بيتكما شعشع منها نورٌ. الناس كالهوام حولها يدورون ويدورون. ورأيتها كما وصفتها أنت قبل لحظة. فخذاها دوائرٌ. سرّة بطنها كأسٌ مدوّرة. رائحة أنفها تفاح. من شفتيها يقطر عسلٌ بريّ. وقامتها شجرة كمثرى. ورأيت شبحاً يتسلّقها فيقطف الثمار. نزل الشبح والكمثرى في يده واستدار. فرأيت وجهك، ورأيتك تُخرج خنجراً وتشقّ الكمثرى، وفي قلب الكمثرى رأيت مدينة، أجمل مدينة، عن جانبِ نهر، وعن جانب بحيرة، وأمامها هضبة، وخلفها جبال، وسمعتك تقول شيئاً للمرأة ولم أفهم ماذا تقول. ثم تلاشى وجهك، وظهر وجه هوي. في يده هو أيضاً كانت ثمرة. شقّها بالخنجر نصفين كما فعلت فخرج منها وطواطٌ. وتلاشى وجه هوي. ورأيت وجهي. ثم هبّت ريحٌ ورأيت وجهي يتفتت إلى حجارة، ورأيت الحجارة تتفتت إلى رمال. من الرمال خرج ثعبان. الثعبان تحول إلى ساحر. والساحر قال لي: «التنين يتنفس أيها الجليل شن نونغ، واللعنة تقترب. ما كُتب على ظهر السلحفاة قد كُتب، ووحيد القرن زال عن وجه الأرض. والآن ننتظر. هل تعلم ماذا ننتظر؟» فأجبته إنني لا أعلم. فقال: «أنا لا أنتظر العنقاء إذ أعلم أنها ستخرج من رمال هذه

اللعنة ذات يوم. أنا لا أنتظر شيئاً. فقط أتأمّل ألوان الأرض والسماء مغمض العينين. هل أخبرتك بما سوف يكون؟» فأجبته أنه لم يخبرني بعد شيئاً. فقال: «الصديقان يعبران في حب إمرأة. المدينة تبغض الصديقين. السماء لن تغفر للمدينة هذا البغض لأنه من أعمال الحسد. لو كان من أعمال الخوف لغفرت السماء للمدينة، فالخوف نبيل، وأما الحسد فشرّ. فهل أخبرك أيضاً؟». فقلت نعم. فقال: «نقطة دم تسقط وروح الحجر تملأ الكائنات. الشخير لن يعلو لأنّ السماء ستحبس أصوات النائمين في حناجرهم وأنوفهم. ولكن حامل الخنجر الذي تقطر شفرته دماً لن ينام. هل أخبرك بعد؟» فقلت أخبرني. فقال: «القاتل يطير ويتحوّل ويهوي في ظلام. لا يرى نور الشمس إلاّ ويحرق النور عينيه. لا يخرج في الضوء إلاّ ويتمنّى لو تخرج منه الروح. فالروح تحمل الجسد المريض، وأما الروح المكسورة فمن يحملها؟» وتنفس الساحر، فغطى البرد وجهي، فكأنني أغوص في ثلوج الهملايا، وسألته ماذا يكون أيضاً. فأجابني: «ذلك يكفي. ولا يبقى إلاّ الجميلة. ويحدث لها ما يحدث لأهل المدينة. ولكن مخلوقات الحرير تأتي إليها وتنجدها من رياح الرمال». وتراجع خطوة، وبدأ يلتفّ بأثواب الظلام، فسألته: «وأنا؟». فقال: «أخبر بما قد أخبرتك». فسألته: «وبعد ذلك؟» فلم يجبني. واختفى. فلما اختفى أبصرت طريقاً، فقطعتها، فاستيقظت.

تراجع ياو إذ تنفس الرئيس في وجهه، ثم سأله هل يريد منه شيئاً لأن عليه الانصراف الان. هزّ الرئيس رأسه، وجذب البطانية حتى فمه. تكلّم من تحتها:

ـ هل ستصبر؟ هل ستصبران؟ أم أنك ستذهب عصر الغد كما قررتما؟

ظل ياو صامتاً. لم يسأل الرئيس كيف علم بأمر اللقاء في عصر الغد. لم يسأله قبل ذلك عن أسرّار كثيرة فلماذا يسأله الآن عن هذا السرّ؟

عوضاً عن الكلام تلمس الخنجر تحت ثوبه. ما يحدث سوف يحدث، هكذا قال ياو في سرّه. وقال للرئيس:

ـ ما قد يحدث حدث، ألم تفهم بعد؟

قام واقفاً، وغادر دار يتامى المحاربين. مشى نحو بوابة المدينة. كانت الشوارع مظلمة وفارغة، وضوء الشموع يخرج واهناً من بعض النوافذ. تذكّر المنام الذي رآه قبل سبعة شهور، الشبح ينزف في مدخل كهف، والآخر في الأعماق المظلمة يتعلّق كالوطواط من السقف ولا يقدر على فعل شيء. تلمّس خنجره من جديد وكرّر قوله أمام التراب والحجر والنجوم والهواء:

ـ ما سيحدث حدث من قبل.

وخرج من المدينة، والتفت، وراقب الحراس يدفعون البوابة، ثم أخذ يركض نحو أشجار التوت.

وحيداً كالقمر في السماء.

الجزء الثالث

الملوك الثلاثة

الصباح الأخير

استيقظ الملك بنغ، على صياح الديكة، وكل جسمه منتصب ومتخشب كالحطبة. كان ضوء المشاعل والقناديل ـ التي تُزود بالزيت الأسود الذي يخرج من باطن الأرض في سهول بنجالا ـ يلقي ظلالاً مرتجفة، عبر النوافذ العالية، فوق السرير العريض. اعتدل الملك جالساً في العتمة الخفيفة ونظر إلى الضوء الأصفر في حديقة القصر، فأحسّ بألم في صدره. ورغم ذلك امتدت يده إلى الجرس الصغير وهزّته مرتين. على الفور دخلت ناظرة الخليلات. (هي النبيلة البالغة من العمر أربعون عاماً، والمكلفة بالإشراف على فتيات المخدع الملكي. تقوم مع مساعدات خبيرات بفحص كل العذراوات اللواتي يُرسلن كهدايا إلى القصر الملكي، هنا في العاصمة كاتاي، فمن النظرة الأولى تكشف الأكثر ملاحة بينهن والأشد فتنة، فتنقلهن إلى الجناح الداخلي، وتصرف الباقيات إلى ناظرة أخرى، تشرف على جناح النساء الخاص بالوزراء وبمستشاري الملك. وأما المليحات التي تأخذهن خلفها إلى الجناح الجواني، فتأمرهن بنزع كل ما عليهن، ثم يبدأ الفحص الدقيق: تتفقد أولاً المظاهر الخارجية للبدن، ابتداءً من الوجه حيث تعاين الشعر والملامح والحواجب والفم والشفاه والأسنان

والعيون والأنف، ثم تنزل إلى العنق فتتأمل طوله وهل يناسب مزاج الملك، ثم تنحدر إلى دوائر الصدر والبطن والحوض والفخذين، فيما الخبيرات ينظرن إلى الأصابع والأظافر، وهكذا. ثمّ بعد الفحص الخارجي تباشر الناظرة بالفحص الداخلي. فتأمر جميع العذراوات بتناول المشروب الساخن الذي أعده عشّابو القصر. وعلى الفور تهوي العذراوات جميعهن إلى نوم عميق. فتراقب الناظرة نوم كل واحدة منهن. لتتأكد من أنهن ينمن نوماً هادئاً، ولا يحدثن شخيراً أثناء النوم، وأن أنفاسهن عطرة وأنهن خاليات من الروائح الكريهة في أي جزء من أجزاء الجسم. حتى إذا مر بهن هذا الفحص القاسي، قُسمن إلى جماعات من خمس، تتولى كل جماعة منهن أثناء ثلاث ليال وثلاثة أيام الخدمة في جناح جلالته الداخلي، حيث عليهن أن يقمن بكل خدمة تطلب منهن، ثم أنه يفعل بهن ما يشاء. فإذا تمت هذه الدورة، حلت محلهن جماعة أخرى. . . وبينما تقوم جماعة بعملها في المخدع الجواني ترابط جماعة أخرى في الجناح الخارجي المجاور، حتى إذا احتاج جلالته إلى شيء، كالشراب أو الطعام، أشارت الجماعة الأولى بأوامره إلى الجماعة الثانية، فتولت فوراً توفير المطلوب. هذا في العادة. ولكن الملك بات في الآونة الأخيرة لا ينام إلاً بعد أن يأمر جميع الخليلات بمغادرة مخدعه. فإذا أراد منهن شيئاً، عند استيقاظه، قرع الجرس مرتين، ليس كي يدخلن، ولكن لتدخل الناظرة، فيطلب ما يريد)(*).

(*) في هذا الوصف إعتماد مباشر على كتابٍ وُضع في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد.

انحنت ناظرة الخليلات أمام الملك، فقال لها:

ـ تلك المرأة، المرأة التي طلبت منك قبل خمس سنوات وشهر ونصف الشهر أن تحفظيها لي في غرفة خاصة بها، اجلبيها.

انحنت ناظرة الخليلات متراجعة، واختفت خلف الستائر المخملية السميكة الموشاة بالذهب والجواهر الكريمة.

قام الملك عن سريره. وقف قرب النافذة. هاهو الصيف يبدأ. موسم ذوبان الثلوج وعودة الحرّ. فيما مضى كان ينام ومراوح الخليلات تحرك الهواء فوقه وحوله. منذ فترة لا يطيق وجود أحد قربه. خصوصاً في الليل.

حين وجد ذلك الفارس البقعة المنشودة، قبل خمس سنوات وشهر ونصف الشهر بالتمام، خيّل إليه ـ هو الملك بنغ، سيد مملكة مانجي، الممتدة شمالاً وجنوباً، على جانبي نهر كيانج العظيم ـ خيّل إليه أنه أخيراً بات يملك أجمل وأعجب مدينة على سطح الأرض. مدينة تضاهي في روعتها مدينة كانبالو ذاتها، عاصمة الإمبراطورية ومقر الإمبراطور. لكن الطبيعة حاربت حلمه. السماء أعطته صورة المدينة في منام، لكن حين بدأ ببنائها، ظهر أنها تعاكسه. خلال الأشهر الأولى مثلاً انتهى عماله من حفر القنوات من النهر إلى البحيرة، القنوات التي ستقطع مربع المدينة، في العرض، من ضلعه الشرقي حتى الضلع الغربي المقابل. وما أن انتهى حفر القنوات حتى حدثت الكارثة. أعداد هائلة من الفئران حفرت أنفاقاً تحت الأرض، بين كل قناة وأخرى، فماد التراب وهوى، وغمرت المياه أرض السهل. أرض المربع كلّه. عندئذٍ بدأ العمل من جديد. أولاً تجفيف الأرض التي تحولت إلى

مستنقع. بعد ذلك حفر حفرة ضخمة قرب النهر، قرب الزاوية الشرقية الشمالية للمربع، بجوار البقعة حيث سينهض القصر. فهذه الحفرة ستشكل بحيرة إصطناعية تمنع طوفان النهر خلال موسم الأمطار، لأن قناة ستحفر منها حتى النهر، ويقام على القناة سدٌ، فمتى ارتفع منسوب الماء في النهر، رُفعت عبّارات السد، فتدفقت المياه إلى البحيرة. هذه العملية (تجفيف أرض المربع، ثم حفر البركة) أضاعت وقتاً طويلاً. وحين قام كبير المزارعين، مع مئات من الفلاحين، بزراعة جزء من السهل، ما بين الضلع الجنوبي للمربع والهضبة، بالقمح، لتأمين طعام العمال، نزلت أسراب من الجراد فوق السهل الأصفر المتموج، وأحالته إلى يباسٍ. هذه الكارثة الثانية جعلت الملك يخاف. استدعى المنجمين إليه وطلب منهم تفسيراً لما يحدث. قال الأكبر بينهم:

ـ هذه سنة النمر. وفي سنة النمر تحل الكوارث أحياناً.

أطلق الملك ضحكة، وقال إن الكوارث تحلّ في كل السنوات، وأحياناً لا تحلّ أبداً، وأنه لو شاء كلاماً مثل هذا الكلام، لطلب الفلاحين إليه، ولكنه طلبهم هم ـ علماء التنجيم ـ من أجل. . . .

سكت الملك، لم يتم عبارته. فتحدث الأصغر بين المنجمين قائلاً:

ـ كي نعرف يجب أن نعرف أولاً.

قال الملك عابساً:

ـ لم أفهم، ما الذي تقوله؟

أجابه الأصغر بين المنجمين (كان في الستين، وفي وجهه آثار

جدري):

ـ أخبرنا أنت كي نخبرك نحن. إجعلنا نعرف كي نتابع فنعرف أكثر. ألم تُرسل إليك السماء إشارة في الليالي الماضية؟

شرد الملك لفترة ثم انتبه. قال:

ـ بلى، ربما. قبل ليالٍ رأيتني في المنام واقفاً هنا، فوق هذه الهضبة، أنظر إلى العمال تحتي، وقد جلسوا في ظلال الأشجار، يأكلون الأرزّ. كانوا يأكلون في صمت، حتى سمعت الأرزّ يُطحن بين أسنانهم ويذوب في فمهم. كان ذلك الصوت كالموسيقى، وهواء خفيف يهبّ ويجفف قطرات العرق عن وجهي وجسمي. نسيت نفسي. نسيت قلقي الدائم وخوفي من الموت، ومن أن أموت قبل أن أرى مدينتي الكاملة، مدينة بنغ، مدينة الحلم، وقد تحولت من رؤيا ومنام، من صورة محفوظة وراء جفني، إلى مدينة حقيقية، قائمة على سطح هذه الأرض، أمام عينيّ. نسيت كل ذلك وتركت الهواء الخفيف وموسيقى الأرزّ الذي يؤكل، تأخذني وترفعني. بلى، أغمضت عيني، فرفعتني السكينة بجناحيها، فإذا بي وسط السماء. هناك رأيت فراغاً منيراً، كغرفة ساطعة الضوء، فدخلت إليه. وإذا بإثني عشر حيواناً تدور حولي. تبينت بينها التنين. لم أعدّها. لكنني علمت عددها رغم ذلك. ثم اختفت، وظهر في مكانها رجل. رفع يده، وفرد كفّه مباعداً ما بين أصابعه. فحدقت إلى أصابعه، فإذا كل إصبع بلون. في اللحظة التالية استيقظت.

سكت الملك. نظر إلى أسفل، إلى حيث ركع المنجمون أمام مجلسه العالي وانتظر. كان ينظر إلى الأصغر بين المنجمين، لكن

الأصغر كان شارداً. فتكلم الأكبر بينهم:

- فليسمح لي جلالتك بالكلام، ورجائي ألا يغضب.

نهره الملك:

- تكلمْ.

فقال:

- الحيوانات علمتَ عددها لأنها رمز الفلك(*). وهذا معلوم. أفلا يعني هذا أن ما قلته من قبل...

رفع الملك يده فسكت المنجم على الفور. قال الملك:

- إذا أعدت حديثك عن خواص سنة النمر أرسلت إليك في الصباح رأساً مقطوعاً لنمر.

ارتعد المنجّم أمام التهديد. انحنى ودفن وجهه في التراب. (فيما مضى أسر الملكُ أحد كبار أعداء المملكة، فحبسه في برج حجري، ونسيه هناك. كان يُرسل الطعام إلى الأسير كل صباح. وذات صباح، وكانت سنة قد مضت، قال الأسير للحارس إنه يريد أن يعرف ماذا سيفعل الملك به. في اليوم التالي دخل الحارس كعادته حاملاً قدر الطعام ثم غادر البرج دون كلمة. غضب الأسير الذي ظل طوال الليل مستيقظاً ينتظر جواب الملك، غضب لأن الحارس لم يأتِهِ بالجواب. ارتمى على الأرض الحجرية للبرج الدائري الذي لا نافذة له، ولا كوة، والذي يظل مضاء في الليل

(*) يتألف الفلك من إثني عشر عاماً، هي، على التوالي: سنة الفأر، سنة الثور، سنة النمر، سنة الأرنب، سنة التنين، سنة الأفعى، سنة الحصان، سنة الخروف، سنة القرد، سنة الديك، سنة الكلب، سنة القنفذ.

والنهار بالمشاعل، وصلّى إلى السماء، التي لا يراها، فالسقف من حجر، ولكنه يعلم أنها ما تزال فوق، في الخارج، وقال: «هذا الانتظار يقتلني، أريد فقط أن أعلم ما سوف يحدث لي. لماذا لا يُشفق الملك عليّ، ويخبرني بمصيري». هجم الأسير على البوابة الحجرية يضربها. في تلك اللحظة سمع صوت الحارس من خلف البوابة يقول: «ولكن جوابك في طعامك». تراجع الأسير بسرعة. كشف الغطاء عن القدر. رأى فيه رأس ثور، ففهم أن الملك قرر قطع رأسه).

رفع الأصغر بين المنجمين رأسه، نظر إلى قدمي الملك. رفع رأسه أيضاً، ونظر إلى وجه الملك، ثم قال:

ـ في البداية رأيت التنين. رأيت التنين لأنه الخامس بين الأبراج. بعد ذلك رأيت خمسة أصابع، ولكل أصبع لون يختلف عن لون الآخر. هذه هي العناصر الأساسية الخمسة(*). هل يُسمح لي بسؤال قبل أن أعطيك التفسير؟

قال الملك الذي أحب هدوء هذا المنجم:

ـ إسألْ.

فسأله:

ـ ماذا كان يحمل الرجل في اليد الأخرى؟

دُهش الملك، ثم أجاب:

ـ كان يحمل عصا، من خشب الزعرور البريّ.

(*) حسب العلوم الصينية القديمة، وهي: الخشب، النار، التراب، المعدن، الماء.

فابتسم المنجم وقال:

- عنصر الخشب محكوم بكوكب المشتري. والمشتري هو خامس الكواكب. والآن اكتملت الرؤيا. السماء أعطتك في هذا المنام وعداً جديداً: بعد خمس سنوات ينتهي بناء المدينة. لكن السماء تحذرك أيضاً.

سكت المنجم. قال الملك:

- أحسست بذلك. في الغرفة الساطعة الضوء كنت خائفاً.

قال المنجم:

- عندما رأيت المنام الأول، وقررت أن تبني المدينة كما رأيتها في المنام، قلت أيها الملك إنها ستكون مدينة السماء، ووعدت وأنت تقدم القرابين أنك ستجعل اسمها «المدينة السماوية»: كين ساي. أتذكر؟

ارتجف الملك. تابع المنجم:

- لكن، بعد أن عثر الفارس الأعور على هذه الأرض، وبدأ البناء، أعلنت أنك ستجعل اسم المدينة: «مدينة بنغ». لذلك حل عليك غضب السماء، فأخرجت إليك فئران الأرض أولاً، ثم أنزلت الجراد الفظيع. فهل فهمت؟

أعلن الملك:

- هذا العصر نرفع القرابين إلى السماء، ونطلب بركتها، كي نتابع بناء مدينتها، مدينة السماء، كين ساي.

بعد ذلك العهد اختفت الفئران. نما القمح في السهل. طال الصيف. قصُر الشتاء. انطلق العمل سريعاً، وتم تقسيم الأرض

إلى مربعات متساوية، كما في لوحة الشطرنج. أقيمت القناطر فوق قنوات الماء، شقت الطرقات المستقيمة، من الضلع الجنوبي للمربع، حتى ضلعه الشمالي المقابل، وبدأ حفر الأساس لإنشاء القصر، في النقطة الأعمق من المدينة، إذ أعلن الملك أنه هكذا رأى قصره في المنام، متربعاً في صدر المدينة، تحت الجبال الشاهقة، كما يتربع الملك على العرش في صدر القاعة الملكية.

هكذا، واقفاً إلى النافذة، يحدّق إلى الضوء الأصفر في الحديقة، حيث تنام الغزلان تحت أشجار التفاح والليمون والكرز والنارنج، وحيث تسبح الأسماك في البركة المدوّرة التي رُصعت جوانبها بالأحجار اللازوردية حتى تمنح الماء لون سماء الصيف، تذكر الملك ـ وكل جسمه ما يزال منتصباً كالخشب ـ السنوات الخمس التي مرت، وأحس من جديد بذلك الألم في أعماق صدره. في تلك اللحظة سمع حركة الستائر الخفيفة، فالتفت.

دخلت المرأة ملتفة بثوبٍ من الحرير الأخضر، والماء يقطر من شعرها. منذ خمس سنوات وشهر ونصف الشهر، منذ تلك الليلة حين تمدّدت هنا كطاولة فرسم الملك على ورقة فوق ظهرها صورة المدينة التي رآها في منام، منذ تلك الليلة لم ترَ وجه رجل. كانت ناظرة الخليلات تصعد إليها كل ظهيرة، بصحبة بعض المساعدات، فيتكلمن زهاء الساعة، ثم يغادرن. لولا هذه الزيارة اليومية لفقدت عقلها. خلال تلك الساعة، عند ظهيرة كل يوم، كانت ناظرة الخليلات تحدّثها في أمر واحد فقط: المدينة التي تُبنى هناك، بعيداً، خلف النهر(*)، إلى الجنوب منه. فقد قرّر

(*) تقع كاتاي إلى الشمال من نهر كيانج.

الملك أن تبقى المرأة أسيرة في غرفتها حتى تكتمل مدينته.

تقدمت المرأة مرتجفة، وركعت. لونها الأصفر ما يزال كما هو. لكنها باتت أجمل. العزلة الطويلة أنضجتها كما ينضج العجين في نار الفرن. هكذا فكر الملك بنغ وهو ينظر إلى جسمها المبلول بالماء، وقد التصق الثوب الحريري به، فاتضحت استداراته.

قال لها:

- ارفعي رأسك.

حين رفعت رأسها، نظر إلى عينيها وجبهتها. كانت نقاط الماء المدورة تلتمع فوق حاجبيها، وفكر أن الناظرة هرعت وأيقظتها، وغسلتها بسرعة الطير، ثم حملتها راكضةً إلى هنا. ابتسم. تقدم خطوة نحوها، وقال:

- اليوم عند العصر ينتهي بناء المدينة. منذ نصف سنة لم أذهب إلى هناك. في السنوات الماضية كنت أذهب مرة كل شهر. لكنني في هذه السنة لم أستطع. الإمبراطور المريض يريدني قربه. والحكام، وراء النهر، يطمعون بنصف المملكة. يريدون مملكة لهم إلى جنوبي النهر، بحيث تكون مملكتي في الشمال فقط. ليس هذا وحسب، يريدون مني أن أبدّل إسم مملكتي من مملكة مانجي إلى مملكة كاتاي. إسأليني لماذا؟

همست المرأة:

- لماذا؟

ابتسم الملك قائلاً:

- يريدون تسمية مملكتهم هم مملكة مانجي.

أطلق ضحكة، واستدار. أعطاها ظهره، ونظر عبر النافذة من جديد. قال:

ـ هذا العصر تكتمل مدينة كين ساي، فأجعلها عاصمتي الثانية. إن منظرها كفيل بزرع الرعب في قلوب حكام الجنوب جميعاً. إسأليني لماذا؟

همست المرأة (في صوتها نعاس وتعب):

ـ لماذا؟

تكلم الملك ناظراً إليها من فوق كتفه:

ـ لأنهم سيعرفون أن السماء معي. فإن لم يعرفوا زحفت عليهم بالجيوش وسحقت رؤوسهم بحوافر الفيلة.

نكست المرأة رأسها، كانت تبكي. قال الملك:

ـ تبكين لأنك سوف تصبحين الملكة.

رفعت المرأة رأسها مذهولة، لا أحد قال لها هذا: أن تصبح هي، السجينة منذ خمس سنوات وشهر ونصف الشهر، ملكة؟ ما هذا الذي يقوله الملك؟

مسحت دموعها بطرف الكمّ. كان الثوب المبلل بالماء قد بات أيضاً مبلّلاً بالدموع. سمعت الملك يقول وقد أعطاها ظهره مجدداً:

ـ على ظهر الفيل هي مسيرة عشرة أيام تقريباً. إذا انطلقنا هذه الليلة وصلنا إلى هناك قبل ذوبان الثلوج التي تغطي الجبال خلف المدينة. ألن يكون منظراً بديعاً؟ فحين سنمضي في الطريق عبر الغابات الكثيفة، سوف تسمعين الحيوانات والطيور، وتنفخ السماء

على وجهك هواء الزهور والنباتات. بعد ذلك نصل إلى سهل الصفصاف والحور. نقطع النهر حيث تسبح أسماك حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء وأخرى بلون الفوسفور تشع كما عيون الضواري في العتمة. بعد هذا النهر سور المدينة. تلتفتين إلى الخلف، وأنت على ظهر الفيل العالي، فتبصرين الغابة التي عبرنا، وتبتسمين. إسأليني لماذا؟

التفت الملك فرآها تهمس:

ـ لماذا؟

قال متابعاً:

ـ لأنه، وقبل أربع سنوات ونصف السنة فقط، كانت الغابة كالجدار. لكن فؤوسي قطعت في قلبها درباً للعربات والحمير والفيلة. أين صرتِ؟ قطعتِ النهر، والتفتِّ وابتسمتِ. والآن تستديرين من جديد لتنظري إلى المدينة، وإلى الجبال البيضاء الشاهقة. من حولك، عن جانبي الفيل تركع الحاشية، لأنك الملكة. يمضي الفيل شمالاً ثم يتوقف. تنزلين عنه وتنظرين إلى البوابة العظيمة. البوابة التي في هذا اليوم ينتهون من تركيبها. بوابة مصنوعة من الحديد، من ألواح تزيد سماكتها عن المتر، تحتاج الدرفة من درفتيها إلى عشرين حارساً كي يتمكنوا من تحريكها. وندخل. الطريق عريضة، تمتد بلا أي انعطاف، إلى آخر المدينة، إلى صدرها، إلى القصر. لن أصف لكِ البيوت عن الجانبين. بعينيك سوف تنظرين إليها وتتعجبين. وحين تدخلين إلى القصر سوف تشاهدين الرسم على الجدار الكبير. رسم المدينة كلّها. بالقنوات والشوارع والبيوت والحدائق والناس والحيوانات والقناطر

والأشجار والبحيرة والنهر والأسوار والبوابات والأبراج والمتاجر. سوف ترين كل شيء في الرسم. وفي الرسم ستشاهدين القصر أيضاً والقاعة حيث تقفين وحيث الجدار المغطى بالرسم. وحين تحدقين جيداً سوف تشاهدين الرسم ذاته، وإذا حدقت أكثر رأيت الرسم وسط الرسم، والرسم الرابع المطابق، وفي الرسم الرابع ترين الرسم الخامس، أصغر لكنه دقيق أيضاً، حتى اصغر تفصيل. فهذه هي المدينة التي بنيتُ أنا، من أجل السماء. مدينة في داخلها حائط رُسمت فوقه المدينة بكل ما فيها، لذا وجب أن يُرسم الرسم أيضاً، حتى تتكرر المدينة في الرسم عشرة آلاف(*) مرة، وفي كل مرة تكون أصغر من المرة السابقة، حتى تصبح أصغر من نقطة، أصغر من حبّة رمل.

همست المرأة وقد تشجعت:

ـ تماماً كما رأيت في المنام.

فتجهم وجه الملك، ثم أنه بدّل قسماته، وابتسم قائلاً:

ـ كلا، تكرار الرسم داخل الرسم، مرة تلو المرة، فكرتي أنا.

ثم خطا نحوها، وحملها، ورماها على السرير، دون أن يفكر ولو للحظة واحدة أنه قد لفظ آخر كلماته في هذه الحياة.

(*) العدد الأقصى.

النمر

مات الملك بنغ في ختام سنة الحصان من ذلك الفلك. كان بلا ذرية، فتُوِّج أخوه الأصغر لي، الملقب بـ «النمر»، ملكاً. ولم تلبث هدايا الإمبراطور للملك الجديد أن وصلت في قافلة من الفيلة، إلى مدينة كاتاي.

وأما المرأة التي مات الملك فوقها، فأصيبت بالجنون، وأخذت تصرخ خلال الجنازة بأنها الملكة. فقُطع لسانها فوراً. وما لبثت ناظرة الخليلات أن أمرت أحد جلادي القصر ـ بعد إستشارة أحد الوزراء ـ بنقل المرأة في كيسٍ إلى الغابات البعيدة، وبقطع رأسها ودفنها مع ثيابها في التراب. لكن الجلاّد، وإذ أوشك على قطع رأس المسكينة المقطوعة اللسان بفأسه، أحس بالشفقة تجاهها. فحملها من جديد، ومضى بها إلى مدينة مجاورة (هي مدينة جوزا على أغلب الظن، المشهورة بكروم العنب، وبالأرانب الضخمة)، حيث باعها في السوق العمومي. ومنذئذ اختفت آثارها. وفي رواية أخرى للأحداث أن آثار المرأة اختفت قبل ذلك، فالجلاد كان بلا قلب وقطع رأسها في قلب الغابة ـ تبعاً للأوامر التي وُجهت إليه ـ بلا لحظة تردد واحدة. (فمن أين يأتي

التردد إذا لم يوجد القلب؟). وكانت المرأة(*) حين قُطع لسانها (هذه الحادثة ـ على الأقل ـ لا اختلاف في شأنها) في السادسة والعشرين من عمرها. ويُرجّح أنها ماتت في السن نفسه.

جلس الملك لي على العرش في كاتاي، بينما المملكة تترنح وتهتز، مهددةً بالإنهيار الشامل. وجمع الملك لي، الذي كان سابقاً القائد الأعلى لجيوش المملكة، أركان جيشه وجميع مستشاري بلاطه، وأعلن أنه سيحكم بالحديد والنار، وأن الطامعين في مملكته هم منذ الآن خصوم الإمبراطور. ودعم أقواله برسالة إمبراطورية أظهرها وجعل قائد الأركان يقرأها على الحضور. في الرسالة أكّد الإمبراطور أنه لا يقبل بتقسيم مملكة مانجي إلى مملكتين، وأنه يبارك جلوس الملك لي، الملقب بـ «النمر»، على عرش المملكة.

لكن حكام المدن في الجنوب قرروا المضي في التمرد. فبالنسبة إليهم إن الامبراطور المريض، والمتأرجح على حافة الموت في قصره البعيد، كان يشبه الشبح، ولا حضور فعلي له. كما وأن جيوشه المبعثرة في أنحاء الإمبراطورية الشاسعة لا تشكل أي خطر عليهم. خصوصاً وأنهم يستطيعون شراء قادة تلك الجيوش بالذهب. كما وأن لديهم الكثير من الأصدقاء في البلاط الإمبراطوري، أصدقاء يضمنون بقاء الإمبراطور على حياد في حال قيام نزاع ـ أو حرب ـ بينهم وبين الملك لي.

مضى الشهر الأول من حكم الملك لي، ولم تُرسل المدن

(*) لا تذكر «الحوليات الصينية» لهذه المرأة اسماً.

الواقعة إلى الجنوب من نهر كيانج الضرائب الملكية المتوجبة عليها. وجاء إلى البلاط الملكي في كاتاي سعاة أعلنوا أن حاكم مدينة سايان فو قرر إهداء إبنه الأكبر مدينة كين ساي. ما كادت هذه الكلمات تبلغ ثقبي أذني الملك لي حتى جُنَّ جنونه.

حسب «الحوليات الصينية» فإن الملك لي وقف صارخاً:

- بطنه سأفتح، مصرانه سأنزع، وإبنه سأحرق.

فجر اليوم التالي غادر الملك لي العاصمة كاتاي ميمماً وجهه شطر الجنوب. (ترك لحراسة العاصمة فرقة واحدة من الجنود فقط). كانت الأرض تهتز تحت حوافر الفيلة والأحصنة والحمير والآلاف المؤلفة من العساكر. خلال سبعة أيام قطعت الجحافل الصحاري والتلال والوديان حتى أشرفت على نهر كيانج العظيم. أمر الملك ببناء جسر من الخشب والحجارة لعبور الأحصنة والحمير. وأما الفيلة فقادها بنفسه في المجرى المائي حيث القعر يشبه مستنقعاً من الرمال المتحركة. ولولا معونة السماء(*) لما نجح في العبور بها. بعد يومين ظهرت للكشافين أبراج سايان فو. وحضر سعاةٌ يؤكدون وصول جيوش من أقصى الجنوب خلال اليومين السابقين. وقال السعاة إن الجيوش باتت منذ الليلة الماضية داخل أسوار سايان فو.

فسألهم الملك:

- وكين ساي، هل اقتربوا منها؟

أجابه السعاة:

(*) قبل أن يتحرك أمر بذبح ثلاثين ثوراً قرباناً.

ـ الكلّ مشغول بالدفاع. ليس من جنديٍ واحد قرب كين ساي.

اطمأن الملك، وأمر القادة بنصب الخيم قائلاً:

ـ عند الفجر ننطلق. مع أول شعاع شمس نضرب حصارنا حول المدينة. وبعد سقوطها نذهب ونحتفل في كين ساي.

في تلك الليلة عجز الملك لي عن النوم. بقي ساعة مع ثلاث خليلات ثم أمرهن بالمغادرة. جلس قرب نار صغيرة، عند مدخل الخيمة، يشرب الشاي، ويفكر.

لم يرَ كين ساي كاملة بعد. قبل خمسة أشهر ذهب إلى هناك للإشراف على بناء القصر نيابةً عن أخيه. من قال ـ من كان يحسب ـ أن الملك بنغ سيموت بهذه السرعة؟ لكنه مات. وها هو الآن قد صار ملكاً. تأمل الشرر المتصاعد في العتمة، ونظر إلى السماء. كانت النجوم كثيرة. فكر أنها لا تُحصى، وداخ من النظر إلى المجرة. من أنحاء المعسكر تأتي أصوات عديدة. ومن بعيد أصوات فيلة لم تنم وصراخ بعض الرجال. (يتجادلون على رقعة صوف، أو شبر من الأرض الناعمة والأصلح للنوم).

استعاد صورة القصر، والرسم في داخله. حين ذهب إلى هناك، قبل خمسة أشهر، كانوا يضعون اللمسات الأخيرة على ذلك الرسم. أخوه ـ الملك الراحل ـ استدعى مئة وعشرين مصوِّراً من أنحاء الإمبراطورية لتنفيذ المهمة. فعل ذلك رغم تحذير المنجمين الذين قرأوا في الأبراج وفي تصاوير النجوم غضب السماء. فالسماء أمرته ببناء مدينة صوّرتها له ـ حتى أصغر تفصيل ـ في منام. وفي ذلك المنام لم تُصوّر له السماء هذا الرسم الذي جاء

بمئة وعشرين مصوّراً لإتمامه.

وفكر الملك لي في ذلك: هل صَدَق المنجمون والحكماء؟ هل مات أخوه فعلاً بسبب من الكبرياء؟ أَسكَت قلبه، وسقط كالديك المذبوح فوق فراشه العريض، فقط لأنه أصرّ على إتمام الرسم؟ لأنه قام بذلك متحدياً السماء؟

رفع الملك لي رأسه فرأى السيد تشوانغ، ناظر الفيلة، يقف على بعد خطوات، يتأمل السماء، ويشرب من كوب فخاري كبير. دعاه إليه فأسرع السيد تشوانغ. قال له:

ـ اجلسْ.

جلس السيد تشوانغ وقد أبعد كوبه جانباً. قال له:

ـ اشربْ. نحن الآن في الحرب. وفي الحرب الملك والناظر والفلاح كلّهم يتساوون.

همهم السيد تشوانغ بكلمات التبجيل والاعتذار، ثم رفع كوبه من جديد وقد نكس رأسه. سأله الملك:

ـ ماذا تشرب؟

أجابه:

ـ ما هوانغ(*).

علق الملك:

ـ الربو مزعج في هذا الفصل.

هزّ السيد تشوانغ رأسه. فابتسم الملك مفكراً: هذا رجل قليل الكلمات لكنه يعلم. يعلم طبيعة الأشياء. وأخي كان قليل

(*) نبتة طبية، استُعملت كعلاج ـ في الصين ـ منذ أكثر من خمسة آلاف سنة.

الكلمات أيضاً. لكن أكان يعلم؟

سأل الملك لي السيد تشوانغ:

ـ يقولون أنك لم تذق الشاي في حياتك.

ابتسم السيد تشوانغ بخجل، قال:

ـ كنت في الخامسة حين شربته. فأصابتني نوبة سعال وكدت أموت.

ضحك الملك قائلاً:

ـ الفيلة أيضاً تكره الشاي.

أجابه السيد تشوانغ:

ـ لكنها تحب الما هوانغ.

رشف الملك من كوبه. نظر إلى العيدان تحترق وسط النار، وفكر في أخيه مرة أخرى: لماذا أصر أخوه على ذلك الرسم رغم تحذير المنجم، ورغم تنبيه الحكيم؟

وجد نفسه يسأل السيد تشوانغ:

ـ المعلم الحكيم الذي تحمل اسمه ماذا يقول عن الخلود؟

ابتسم السيد تشوانغ بخجل (هذه الابتسامة الخجولة لماذا لا تفارق شفتيه؟) وقال:

ـ لستُ من الحكماء كي أعلم. كل ما أعرفه تعلّمته من الأفيال.

ضحك الملك (منذ زمن بعيد لم يضحك من قلبه هكذا) وقال:

ـ أنت علّمتك الأفيال، أنا لم يعلّمني أحدٌ إطلاقاً.

بعد ذلك سكتا. تدريجياً خفتت الضجة في المعسكر. ولم تعد تسمع إلاَّ أصوات النيران. والأخشاب التي تطقطق في أعماقها. والهدير اللطيف للنهر. وموسيقى الرياح التي تجيء وتروح. من الصمت تكلم السيد تشوانغ:

- بوصفي رجلاً حكيماً شربتُ السوما(*)، السائل الحلو المسحوب الذي يمنح القوة ويهب الآلهة القدرة والحرية إلى الأبد. هكذا قال الحكيم القديم قبل ألف سنة. فهل كان حكيماً فعلاً؟

سأله الملك:

- تتحدث عن خلود الآلهة؟

أجابه السيد تشوانغ:

- من نحن كي نتحدث عن الآلهة؟ الحكيم الهندي الذي قال تلك الكلمات استخدم كلمة «الآلهة» عرضاً. في ذلك الزمان كانوا يحسبون أن السوما يُسحب من هذا الذي أشربه. من جذر الـ «ما هوانغ». لذلك كان يُباع بأسعار باهظة. الآلهة لا تسعى إلى الخلود. الإنسان هو الذي يفعل.

سأله الملك:

- لكن ماذا تريد أن تقول؟

سأله السيد تشوانغ بدوره:

- ألم تكن تفكر في الملك بنغ حين تكلمت عن الخلود؟

(*) إكسير الشباب، أو عقار الخلود، يمنح مَنْ يشرَبَه الحياة الأبدية.

هزّ الملك لي رأسه قائلاً:

- إذاً، فالكلّ يعلم.

ضحك السيد تشوانغ بخفرٍ:

- لنقل إن للفيلة آذاناً.

ابتسم الملك معجباً بالصورة:

- للفيلة آذان فعلاً. وهل تسمع الفيلة موسيقى السماء؟

أجاب السيد تشوانغ جاداً:

- حين تكون نائمة، ربما. المخلوقات تشبه بعضها.

قال الملك:

- وأما أخي فسمع ولكنه مال بأذنه عما سمع.

سكتا. سكب الملك مزيداً من الشاي في كوبه. أخذ يحدق إلى ألسنة النار من جديد. الليل ما يزال في أوله، قال لنفسه. ثم تذكر أنها ساعات فقط وينطلق. سأل نفسه: «ما هذا الهدوء الذي يملؤني؟» ووجد نفسه يسأل السيد تشوانغ:

- لماذا أحسّ بهذه السكينة رغم غضبي العارم. حين سأمسك بصاحب سايان فو سأمزقه إرباً. ورغم انتظاري تلك اللحظة بفارغ الصبر فإني هادئ الآن.

أجاب السيد تشوانغ:

- قبل قليل سألتني عن كلمات المعلم الحكيم في الخلود. والآن بينما تتكلم تذكرتها. المعلم تحدث عن ليه تسه وكيف إقترب من التاو أخيراً. قال إنه خلع المصنوع وانكفأ إلى المطبوع.

وقف في العالم كأنه كتلة من التراب. في وسط التخبط والاضطراب بقي مع الواحد حتى النهاية. لا تكن صاحب شهرة. لا تكن ممتلئاً بالخطط. لا تكن منشغلاً بالشغل. لا تكن سيداً للمعرفة.

سكت السيد تشوانغ. من طرف المعسكر سُمعت حركة ثقيلة. ابتسم الملك. (هذه أصوات الفيلة). تابع السيد تشوانغ:

ـ الملك بنغ فعل العكس. إصراره على الرسم، ذلك الرسم الذي تحدى به المساء إذ ضمَّنه الوانغ(*)، ضمَّنه اللامتناهي، جاء من رغبته في الشهرة. وكل رغبة خطيئة، وأما أنت...

قطع السيد تشوانغ عبارته وقام واقفاً. أمره الملك بعنفٍ:

ـ اجلسْ.

لكنه ظل واقفاً وقال:

ـ حين يأمر الملك فإن العبد يطيع. لكن العبد خائف. إن الليل والشراب والنار من أدوات... أقصد أن الغرور وضع الكلمات على لساني. من أنا لأحكم على الملك بنغ؟ من أنا لأحكم على أحد؟ حتى على الفيلة لا أحكم، فهل أحكم على إنسان؟

وقف الملك لي والكوب في يده. استدار ومشى نحو الخيمة القريبة حيث ينام النبلاء. أزاح الستارة فرأى القماش الثمين والحركة في العتمة. تراجع مسرعاً. (لم يفكر أنه توجد نساء في الداخل. كان سارحاً يفكر في كلمات تشوانغ).

(*) العشرة آلاف، رمز اللامتناهي.

التفت فرأى أن ناظر الفيلة كان يرتجف كأنه يبكي. تجاهله، ومضى، وعَبَر بينه وبين النار، ثم دخل إلى الخيمة.

جلس على جلد الفهد وتذكر أيام كان يخرج مع أخيه للصيد. كانا ما يزالان في كانبالو حيث يعمل أبوه في خدمة البلاط. بنغ الذي يكبره بسبع سنوات كان يصيد النمور بأفخاخ الحفر. يحفر في الأرض، يغرز في القعر أغصاناً مدببة الرؤوس، ويغطي الفوهة بالأغصان والأعشاب والتراب. ذات مرة، وكان لي لم يبلغ العاشرة بعد، أخذه بنغ معه، وكمنا فوق شجرة. حين سقط النمر في الفخ (ترك له بنغ خروفاً صغيراً مربوطاً إلى وتدٍ قرب الحفرة المموهة) نزلا عن الشجرة ونظرا. لم يكن النمر ميتاً. كان ينزف. الأوتاد ثقبت بطنه وخرجت من نقاط التقاء قوائمه بظهره. كان يتألم مصدراً أصواتاً مفزعة. مخالبه تحفر الأرض وتهدم جوانب الحفرة. التراب يتساقط والدم يقطر من فروته. قال بنغ للي: «الآن ننتظر حتى يموت». سأله لي: «هل يتأخر؟» أجابه بنغ: «جسمه كبير. فيه دم كثير. قد يبقى ساعة. أتريدنا أن نذهب ثم نعود؟». عندئذٍ خطف لي خنجر بنغ. قفز إلى الحفرة وذبح النمر من عنقه.

لقب النمر حصل عليه فيما بعد. في معركة أنجوت، في سهل أنجوت. كان ذلك قبل عشرة سنوات وحسب. آنذاك لم يكن قائداً للجيوش. بل أحد الأركان المسؤولين عن جباية الضرائب من أنحاء المملكة. كان قد مضى إلى أقصى الشرق، إلى مدينة تدعى ثولومان. مدينة غريبة تفوح منها رائحة الجثث المحروقة في الليل والنهار، وأهلها من أبشع الخلق. كان راجعاً منها محملاً بالذهب

إلى كاتاي حين بلغه الخبر. العاصمة محاصرة بالجيوش. جيوش قدمت من الجنوب. أخوه، الملك بنغ، مهدد بالموت في قصره. على الفور أرسل أسرع فرسانه إلى العاصمة. حمّله رسالة إلى قائد جيوش المقاطعات الجنوبية الغازية. في الرسالة تحدث عن صناديق الذهب التي يحملها وأبدى رغبته في التحالف مع الجيوش الجنوبية ضد أخيه. كتب قائلاً:

ـ «إذا دخلتم كاتاي الآن أثرتم عليكم غضب الإمبراطور في كانبالو. إن كانبالو تبعد مسيرة يوم عن كاتاي. وسقوط كاتاي سيحوّل الإمبراطور إلى نمر جريح، نمر مخيف. وأما إذا عقدنا هذا التحالف، فجاء دخولكم إلى كاتاي بطلب مني، فإن الإمبراطور لن يتدخل. لأنه يثق بأسرتي(*)».

أرسل لي فارسه ثم حثّ الخطى وراءه. بعد مسيرة نصف يوم وجد نفسه، مع رجاله المئة، وسط سهل أنجوت. كان الوقت ظهيرة. بينما الخيول ترتوي من الجدول، ظهرت الجحافل في الأفق. أمامها يجري فارسان. وصلا وترجلا. الأطول بينهما تقدم قائلاً:

ـ أخوك في الأسر. القائد فونغ لم يلمسه. شرط التحالف أن تقطع رأس أخيك بسيفك. بعد ذلك تحكم كاتاي وكل المدن إلى شمالي النهر. وتترك للقائد فونغ حكم مملكة مانجي.

كانت الجحافل قد باتت على بعد مئات قليلة من الأمتار.

(*) أسرة شانغ.

سأل لي الفارس الطويل:

- أين أخي؟

أشار الفارس إلى العساكر المقتربة. فسأله لي:

- ولكن قلْ لي ألست أنت القائد فونغ؟

تراجع الفارس خطوة وقفز فوق صهوة فرسه قائلاً:

- لم تخطئ أبداً. وأنت لي جابي الضرائب وأخو الملك الأصغر والطامع في عرشه. سوف تكون ملكاً صالحاً يا لي. وسوف تجدني كالأخ الأكبر لك. بل كالأب. هيا واتبعني، رأس الملك القديم ينتظر سيفك.

في تلك اللحظة صنع لي مجده. لم يكن يفكر في المجد. كانت السماء تقذفه كما تشاء. كان في يدها كالخنجر في يد القاتل. كالساطور في يد القصّاب. أطلق صرخة وهجم بسيفه. قطع عليه الفارس الآخر (الفارس القصير) الطريق. طوّح لي بسيفه فشق رأس الفارس. قطع أذنه وشطر جزءاً من الجمجمة.

استدار القائد فونغ بفرسه مذعوراً وقد رفع سيفه. لكن لي انحنى وغرز رأس السيف في قلب القائد. عانق الحصان الفرس، وعانق لي القائد فونغ. غرز السيف عميقاً ثم رسم بحدّه دائرة حول قلب القائد. سمع طرطقة أضلاع القفص الصدري وأحسّ بقوة هائلة في ذراعه. تذكر ذلك اليوم حين قفز إلى الحفرة وقتل نمراً لأول مرة. غرز يده في الثقب وسحب قلب القائد من صدره.

انطلق وخلفه المئة. كان يقضم القلب الساخن ويبصق

صارخاً. اجتاح الجحافل كالإعصار. يقتل عن اليمين وعن اليسار. الجيوش حين رأت القائد فونغ مطروحاً على فرسه(*)، والدم يفور من صدره، تبعثرت للتو. ذلك أن قادتها كانوا متفرقين، وبينهم عداوات مبيتة، فإذا كان القائد فونغ قد جمعهم فيما مضى، فمن يجمعهم الآن؟

في تلك المعركة في سهل أنجوت قيل أن لي قتل مئة رجل. قيل أيضاً أنه تعارك مع رجل هائل الحجم وأنه استطاع أن يركب في النهاية على صدر خصمه الضخم فيثبّته إلى الأرض. ثم رفع خنجره عالياً ليطعنه في العنق فإذا بالرجل يبصق في وجهه. لما بصق الرجل في وجهه قام لي عن صدره وتركه وهجم على فارس آخر متابعاً المعركة. وبعد المعركة، حين سألوه لماذا عفا عن ذلك الرجل، أجابهم:

ـ كانت السماء تُحركني فكنت أقتل من أجلها. لكن حين بصق الرجل في عيني امتلأتُ بالغضب. غضب مني وليس من السماء. وأنا أريد أن أقتل أعدائي وأنا نقيٌّ في عين السماء.

بعد تلك المعركة التي أنقذ فيها أخاه، الملك الأسير بنغ، وخلص المملكة من الإنقسام، خلع الشعب على لي لقب «النمر»، وخلع عليه الملك بنغ لقب «القائد الأعلى لجيوش مملكة مانجي».

تمدد الملك لي على ظهره وأغمض عينيه. كانت كلمات السيد تشوانغ ما تزال تطنّ في أذنيه. إذاً فقد مات بنغ لأن الكبرياء

(*) أحدُ المئة من فرسان لي سحب فرس القائد فونغ خلفه.

ملأ جسده بالظلام. لكن بنغ كان يعلم أن تحدي السماء سوف يصل به إلى الهاوية، فلماذا ظل يتحداها المرة تلو الأخرى؟ تحداها قبل زمن بعيد حين ضاعف الضرائب (في ذلك القرار كان سبب تمرد المقاطعات الجنوبية وزحفها على كاتاي قبل عشر سنوات. وآنذاك، لولا معونة السماء والخطة التي أوحت بها للي وسط سهل أنجوت ماذا كان حدث؟).

ثم تحداها مجدّداً حين قرّر ألا يسمّي المدينة التي يبنيها كين ساي بل «مدينة بنغ». وهذا التحدي كاد يمنع انشاء المدينة. (هو لي، كان حاضراً حين حوّلت الفئران السهل إلى مستنقع إذ حفرت أنفاقاً بين القنوات المائية). ولولا حكمة المنجمين ماذا كان حدث؟ وفي الختام التحدي الأخير. ذلك الرسم وسط قاعة الاستقبال في قصر كين ساي. لماذا؟ أكان ذلك صنيع الكبرياء فقط؟

أحس الملك لي بالحزن. أخوه كان غاضباً. غاضباً من السماء لأنها لم تمنحه ذرية. كان يعاشر ألف عذراء، ألف امرأة، ألف خليلة، لكن بلا جدوى. كان يضاجع ثلاث وأربع ساعات بلا توقف، لكن ماذا ينفع؟ الطاقة في جسمه لم تكن مفيدة لأن السماء أرادت ذلك.

لماذا أرادت السماء ذلك؟ لماذا أرادت ألا يُعطى الملك بنغ ذرية؟

فكر الملك لي في أولاده. لديه ثلاثة أبناء ذكور. وبنات كثيرات. حين يموت سيبقى العرش لأولاده. هل كان سيحزن لو كان بلا ذرية؟ أكان سيغضب من السماء؟ أكان سيتحداها؟ يتحداها

في كل فرصة مؤاتية؟

لا تكن صاحب شهرة. لا تكن ممتلئاً بالخطط. دمدم الملك لي وقد أغمض عينيه. في تلك اللحظة غفا.

حين فتح عينيه رأى قادة الأركان في الخيمة. ضوء الفجر يكاد يطلع. الفيلة تحركت. قفز واقفاً. هرع خارجاً والقادة يركضون خلفه. جميع الخيم رُفعت. جميع النيران انطفأت. الكلّ على المطايا. المشاة انطلقوا منذ ساعة. وعلى بعد خطوة ينتظره حصانه.

تقدموا بسرعة تحت جنح الظلام. حين بدأ لون السماء يتبدل من أسود إلى أخضر رفع يده اليمنى فوجد القادة حوله. كانوا فوق أحصنة مطهمة، جباههم عالية، ورائحة الأرض تفوح منهم. تكلم الملك لي:

- لن نضرب حصاراً حول المدينة. كلّهم هنا بانتظارنا. كالخرفان سنضرب أعناقهم. اقتربوا، هذه هي الخطة.

انتصاره في هذه المعركة يضمن توحيد المملكة طوال عهده. يعلم هذا. كل المتمردين في انتظاره وسط سور دائري. لا يريد أن يضرب حصاراً فيجوعوا ويجوع معهم. يكره الحروب البليدة. يعرف أن السماء لا تحبها. قال لنفسه إن السماء عموماً لا تحب الحروب. تذكر أناشيد لاو تسه: «الأسلحة الجيدة آلات للخوف تمقتها كل الكائنات. ولذلك لا يستعملها أهل التاو قط... الأسلحة آلات للخوف وليست أدوات العاقل الكيّس. فهو لا

يستعملها إلاّ إذا لم يثبتَ لديه خيار. السلم والسكينة عزيزان على قلبه. ليس النصر بسبب للفرح. إن من يفرح بالنصر يفرح بالقتل. ولئن فرحت بالقتل فلن يمكنك استكمال ذاتك»(*).

سمع صوتاً إلى يمينه. التفت فرأى ناظر الفيلة راجلاً يسرع الخطى بحيث يبقى بمحاذاة حصانه. جذب الملك اللجام. انحنى وكلّم الناظر:

- هل أفهموك ما أريد؟

أجابه الناظر:

- كل شيء.

سأله الملك:

- وتقدر أن تفعل ذلك؟

هز الناظر رأسه إيجاباً. همز الملك حصانه، أرخى اللجام، وتقدم.

لون السماء يتبدل من الأخضر إلى الأصفر. خلف الجبال البعيدة ظهر ضوء أبيض. ها هو الشعاع الأول يكاد يقفز إلى السماء. كانوا يدورون حول غابة. فجأة، إذ بلغوا طرفها وانعطفوا، بانت أسوار سايان فو.

حين بدأت النبال تتساقط توقف الملك لي وأمر القادة بتوزيع الفرق. مضى نصف الجيش إلى اليمين والنصف الآخر إلى اليسار. وبدأت الفيلة تتقدم. كانت الأسوار على بعد خمسين متراً

(*) من النشيد الواحد والثلاثين من الـ «تاوتي تشينغ».

تقريباً. ومشى الناظر (السيد تشوانغ) خلف الفيلة يكلّمها، محتمياً بجلد جاموس مجفّف بالنار. الفيلة تتقدم غير آبهة بالنبال التي تقع حولها. كانت غير آبهة بالنبال لأنها لم تكن قادرة على رؤيتها، ولا على رؤية التراب، ولا على رؤية الهواء. لأن الناظر ـ وتبعاً لأوامر الملك ـ كان قد عصب عيونها بالجلود.

حين أصبحت الفيلة على بعد أمتار عديدة من السور (الآن ما عادت النبال تبلغها، لأن الرماة لا يرونها) أطلّ بعض الرماة من فوق السور وحاولوا قذفها بالرماح. على الفور انطلقت نبال الفرق المرابطة حول الملك لي فأسقطت الرماة الأعداء من أعالي السور. رأى الملك فيلاً يدوس رأس أحدهم ويجفل.

حتى تلك اللحظة كان ناظر الفيلة ما يزال قادراً على السيطرة على حيواناته. استدار، فرأى الراية الحمراء تُرفع قرب مركز الملك لي. ركض مبتعداً عن فيلته وعن أسوار المدينة. فيما انطلقت من وراء الملك عربات تجرّها الثيران. كانت العربات محملة بالقش يقودها رجالٌ لبسوا الدروع. انطلقت عربات القش صوب الفيلة والنبال تتساقط كالأمطار فوقها. أصيبت بعض الثيران، وانقلبت عربتان، لكن معظمها وصل إلى هدفه. وهكذا أحاطت العربات بالفيلة، صانعةً نصف دائرة حولها. فباتت الفيلة العمياء محصورة بين العربات وبين سور سايان فو. قفز الرجال الذين يقودون العربات أرضاً. بالسواطير قطعوا الحبال وأطلقوا الثيران إلى وسط المساحة المطوقة أيضاً. فيما انطلقت مجموعة جديدة من العربات، من خلف الملك لي، لتصنع دائرة ثانية حول دائرة العربات الأولى. كل هذا كان يجري فيما النبال تهوي نزولاً،

والنبال الأخرى ـ نبال جيوش كاتاي ـ تنطلق صعوداً لتختفي خلف أسوار سايان فو.

ابتسم الملك لي إذ رأى دوائر عربات القش وقد اكتملت محاصرةَ الفيلة العمياء تماماً. رفع ذراعه اليمنى عالياً، فانطلقت النبال ـ المصوّبة إلى عربات القش والحطب ـ وقد اشتعلت رؤوسها بالنار.

(في «الحوليات الصينية» أن الملك لي رأى الخطة كلّها في منام. وأما شيانغ فو، وهو من أشهر تاويي القرن الثالث للميلاد، وأحد أبرز شارحي كتب التاو المقدسة، فيأتي على ذكر هذه المعركة لدى حديثه عن حكمة الرجال الذي يعملون في الطبيعة ويتعلمون منها، فيقول: «وناظر الفيلة تشوانغ مثالنا. فمن لا يعرف خطته الشهيرة لاختراق أسوار سايان فو؟»).

ذُعر الفيلة، ولهب النار الذي بدأ يلفحها، جعلها تندفع نحو الجدران التي لا تستطيع رؤيتها. ومع كل اندفاعة كان هديرٌ عظيمٌ يخترق الآذان. وذلك الصوت المفزع الذي تصدره الفيلة. ثم... سُمع السور وهو يتحطم. تفتتت الحجارة وتساقطت. واندفعت الفيلة الهائجة إلى داخل المدينة. (قبلها إندفعت الثيران الأصغر حجماً).

لم يأمر الملك لي عساكره بالهجوم. بل فعل العكس: أوعز بالكفِّ عن إطلاق النبال. وجاء السيد تشوانغ وركع قرب حصانه. قال الملك لي:

ـ لقد توقفنا عن رمي النبال كي لا نقتل الفيلة. الفيلة تحارب

بدلاً منا الآن. ولن نطلق السهام إلاَّ على الهاربين من البوابة إلى الخارج.

نظر الملك لي نزولاً، نظر إلى الكتفين المرتجفتين لناظر الفيلة، وقال له:

ـ لن تستمع إليك بعد الآن، أليس كذلك؟ وحين ستسمع صوتك سوف يصيبها الذعر. لقد خسرتها، خسرت فيلتك سواء عاشت أو ماتت.

شهق السيد تشوانغ ورفع رأسه إلى الملك قائلاً:

ـ الليلة الماضية حين حدثتني وطلبت مني أن أجلس قربك حول النار، أحسست أن شيئاً سيحصل لها. أن فيك خطة قد...

سكت السيد تشوانغ. أشاح الملك لي بوجهه عنه. نظر إلى الرجال الهاربين من سايان فو يتساقطون كالذباب أمام بوابتها. بدا أنهم لا يتساقطون بسبب من النبال التي تخترق أبدانهم. بدا أنهم يتساقطون مختنقين بدخان القش والحطب والعربات المحترقة.

قال الملك لي:

ـ هذا هو الإنسان. مثله كمثل الهوام. ومن أجل ماذا؟ من أجل حفنة ذهب. من أجل رقعة أرض. من أجل مملكة.

ونهر الملك ناظر الفيلة:

ـ إذا كنت تريد أن تبكي فلا تبكِ خسارتك. ولكن ابكِ من أجل الألم والنار التي أحرقت حيواناتك.

قام السيد تشوانغ واقفاً وهتف:

ـ كيف تعلم لماذا أبكي أيها المليء بالغرور؟

وأسرع راكضاً واختفى بين أشجار الغابة.

خلال ساعات كانت المعركة قد انتهت. ابيدت الجيوش داخل أسوار سايان فو. لم تقع في جيش كاتاي سوى إصابات قليلة. (بعضها من النبال، وبعضها من النار، فالرماة الذين اطلقوا السهام ذات الرؤوس النارية أصيبوا ببعض لهبها).

دخل الملك لي محاطاً بالفرسان قصر سايان فو حيث جمع الزعماء الأعداء مثقلين بأغلال الحديد. أمر الملك بسحب الابن الأكبر لحاكم المدينة، وبجرّه إلى ساحة المدينة. (كانت الفيلة قد خرجت من البوابة الآن وتاهت في البراري، وهي ما تزال عمياء، إذ لا أحد استطاع ـ أو حاول ـ أن ينزع الجلود عن عيونها).

أمام عيون الجميع أُحرق الابن الأكبر للحاكم بنارٍ عظيمة. بعد إحراق الابن، أمرَ الملك لي بقطع رؤوس خمسة من الزعماء. ثم وجه الأوامر إلى بعض قادته بإحضار نساء الحاكم وباقي الزعماء، وبإثقالهن بالجواهر وبثياب الحرير وبالفراء الثمينة، وبإرسالهن على الفور عبيداً إلى كانبالو(*).

ختم الملك لي مآثره في ذلك النهار برفع حاكم سايان فو في الفضاء بيده اليسرى، وبطعنه بالخنجر في بطنه باليد اليمنى. شقّ البطن من السرّة حتى الأسفل. ثم شقّه بالعرض أيضاً حتى

(*) إلى مقر الإمبراطور.

الخاصرة. فسالت الأحشاء منه، وتساقطت على التراب.

عصر ذلك اليوم، وبينما ينطلق مع فرسانه نحو كين ساي، وقد عزم على جعل «المدينة السماوية» عاصمته الثانية ومقر إقامته الصيفي، سمع الملك لي صراخاً خلفه. استدار، فرأى عربة يجرها ثور تقترب. نظر إلى ما تحمله العربة فاكتشف جثة تشوانغ، السيد تشوانغ، ناظر الفيلة. ومن ظهر الجثة كانت تخرج شفرة سيف لامعة، ملطخة بالدماء.

تقدم الملك لي القافلة بعد أن أمر الجميع بترك مسافة مئتي متر بينهم وبينه. اراد أن يبقى وحده. كانت صورة السيد تشوانغ في عينيه. تُرى كيف طعن نفسه بالسيف؟ هل غرز مقبض السيف في الطين ثم رمى جسمه فوقه؟ الفارس الذي عثر عليه، بين أشجار الغابة، قال شيئاً من هذا القبيل. لكن أقال «طين» أم قال «تراب»؟

وسأل الملك لي نفسه ما الفرق؟ طين أو تراب، لقد مات السيد تشوانغ. مات وصراخ الفيلة المتألمة في أذنيه. لكن، ألم يكن يعلم أن السماء أرادت هذا لأنه يجب أن يحدث؟

ولماذا وصفه بالمغرور؟ ولماذا قال له أنه لن يدري أبداً ما سبب بكائه؟

ألم يبكِ من أجل الفيلة، من أجل خسارته للفيلة؟ ولماذا شكّك به فاتهمه بالخداع قائلاً إنه أحسّ بالخوف في الليلة الماضية حين دعاه للجلوس؟

إنّه لم يكن يخدعه بالأمس. بل أراد صدقاً الجلوس والحديث معه. لكن مهلاً، ألم يفكر في الخطة (خطة الفيلة المحاصرة بالنار

من جهة وبالسور من الجهة الأخرى)، ألم يفكّر في هذه الخطة منذ اللحظة التي سمع فيها بدخول جميع الجيوش الجنوبية إلى سايان فو؟ (إذاً فالسيد تشوانغ لم يكن مخطئاً!).

ورفع الملك لي رأسه. كان المساء يُقبل، وضوء النهار يتلاشى. ورأى المشاعل تتوهج في البعيد. رفع ذراعه فأسرع أحد الكشافين إليه. أشار إلى المشاعل فانطلق الكشّاف مسرعاً، حصانه الأسود كأنه يطير.

عاد يعلن أن الجنود في مدينة كين ساي قد أشعلوا النيران عند قمة الهضبة إذ علموا بقدومه إلى «مدينة السماء»(*)، وأن الاحتفالات لاستقباله قد بدأت.

سأله الملك لي:

ـ كم تبعد بعد؟

أجابه الكشّاف:

ـ المشاعل التي رأينا وهجها هي مشاعل كشّافتهم. الهضبة ما تزال بعيدة بعض الشيء.

نهره الملك لي وقد أحسّ بالتعب فجأة:

ـ كم تبعد أيّها الأبله؟

أجاب الكشّاف مسرعاً:

ـ نصل قبل الفجر.

(*) لقد قام مع جيوشه بدورة كاملة حول المملكة ليصل إلى هنا.

وأغمض الملك لي عينيه، وتمنى لو يضمحل في الهواء، لو تهبّ الريح وتنثره كالغبار فوق هذا المرج، فيضيع في البسيط ويتلاشى، ولا يكون إنساناً بعد ذلك أبداً.

التحكيم

دام حُكم الملك لي عشرين عاماً. إثر موته المفاجئ(*) دبَّ الخلاف بين أبنائه الثلاثة، ذلك أن الملك لم يُسمّ خليفته. فقال الأخ الأكبر إنه الأحق بالخلافة. لكن الأخ الأصغر أعلن أن والده الملك قد أوصى بأن يملك هو من بعده، وأمام النبلاء، ثم أنه ذكر أسماءهم واحداً واحداً. وأما الأخ الأوسط، وكان يحكم مدينة كين ساي، فأرسل إلى الإمبراطور مبعوثاً ليطلب منه التحكيم واختيار من يراه مناسباً.

لكن الإمبراطور أعلن أنه لا يقبل بالدخول في مسألة عائلية تخصّ إحدى أعظم الأسر في إمبراطوريته وأنبلها. وأردف المستشار المتحدث باسم الإمبراطور قائلاً:

ـ إن أسرة شانغ عُرفت في أراضي الإمبراطورية جميعها بالحكمة وبالسعي إلى الكمال. حتى أن الحكُام من هذه الأسرة استمدوا الراحة من سكون الخلق، فكان الناس يعيشون في البساطة، ينعمون معاً ببركات السماء ويأكلون من ثمرات الأرض،

(*) قُتل في حادثة صيد. عانق نمراً وطعنه بالخنجر في بطنه، لكن النمر استطاع أن يغرز أنيابه في عنق الملك، فماتا معاً.

لا يتشاحنون ولا يتبادلون التهم، ولا يتنازعون على الحق والباطل، وفي أيديهم السلام والوفرة، تماماً كما تحدث القدماء.

قرر الأخوة الثلاثة ـ بعد هذا الإعلان الإمبراطوري الكريم ـ أن يجتمعوا ويتفقوا على خليفة أبيهم. كان الأخ الأكبر يقيم في العاصمة كاتاي، والأخ الأصغر يقيم في تساي في أقصى الجنوب. فاتفقا على اللقاء في النقطة الوسط، أي في مدينة الأخ الأوسط، كين ساي.

حدث الاجتماع في القصر. في البهو الذي يزين جداره رسم «المدينة السماوية». تبادل الأخ الأكبر الشتائم مع الأخ الأصغر. حاول الأخ الأوسط أن يتدخل للمصالحة، ولكن الاجتماع فشل.

في الخارج اشتبكت الفرسان. إحترقت بعض البيوت القريبة من النهر، وبلغت النار سهل القمح، فأحرقت السنابل الناضجة، حتى غطى الدخان فضاء المدينة.

فقال الأخ الأوسط:

ـ أتحرقان المدينة؟

اضطر الأخوان للخروج من القصر ودعوة جيوشهما للهدوء. لكن الأخبار وصلت إلى كين ساي، تعلن أن جيوش الأخ الأكبر، جيوش كاتاي، عبرت النهر العظيم وأحرقت بعض القرى الواقعة على ضفته الجنوبية. ووصلت أخبار من الجانب الآخر أيضاً، من وراء سهول الأرز، تعلن أن جيوش الأخ الأصغر زحفت من أقصى الجنوب، وسرقت بعض القرى، وهي الآن ترابط على مسيرة يوم

واحدٍ من كين ساي.

فقال الأخ الأوسط:

ـ أتدمران المملكة؟

أعلن الأخوان معاً:

ـ أجلبْ لنا حَكماً. هل تريد المملكة بلا ملك؟

قال الأخ الأوسط:

ـ من يكن مضطرباً يفقد السيطرة على نفسه. السماء لن تتركنا وحدنا. لماذا لا ننتظر بهدوء بينما يترسب الوحل؟

أجابه الأكبر:

ـ كلام الكتب لن ينفعنا الآن. عمَّ تتحدث أنت؟

أكد الأصغر:

ـ المملكة بلا ملك تضيع. ماذا تقول أنت؟

جاء المنجمون. تكلموا عن خطوط تصل بين كوكبة الدب الأكبر وبرج التنين. قالوا إن السماء سترسل حَكَماً بعد خمسة أيام بالضبط.

فقال الأوسط:

ـ إذاً ننتظر كالأخوة. نأكل معاً، ونشرب معاً، حتى يحين اليوم الموعود.

اعترض الأكبر:

ـ كيف نضمن أن هذا الحَكَم سيأتي فعلاً؟

وسأل الأصغر:

ـ ومن هو هذا الحَكَم المزعوم؟ وكيف سيحكم؟

تشاور المنجمون، ثم قالوا:

ـ الحَكَم مضمون. وسوف يحكم كما لم يحكم أحدٌ من قبل. انتظروا تروا. سوف يأتي من البعيد. والبعيد ما كان بعيداً. على كتفه يحمل عذراء. العذراء ملفوفة في الحرير. الحرير بلون الذهب. وسوف يخبركم حكاية العذراء النائمة في شرنقتها منذ قرون، منذ سنوات، منذ شهور. العذراء نامت قبل زمن بعيد. الزمن غير محدد. يسيل كالماء. يسرع ثم يبطئ. الساعات لا تقيسه. السماء لا تتعرف إلى وجهه. ويخبركم أن العذراء ليست عذراء. العذراء كان لها حبيبان. فتقاتلا من أجلها. فلعنت السماء مدينتهما. أحدهما تحوّل وطواطاً، والآخر نام كما أهل المدينة جميعاً، ولم يستيقظ بعد ذلك أبداً. النوم طال، ودود القزّ نسج شرنقة حول المرأة ـ التي تُدعى لي تشي ـ بأمرٍ من السماء. الناس نيام. غطّتهم الرمال فتحوّلوا مع مرور الزمن إلى حجارة. ثم هبّت الرياح ونفخت على تماثيل أبدانهم فاحالتهم حفناً من الغبار. المدينة كلها بادت، نزلت في أعماق الأرض. فقط المرأة بقيت راقدة في الشرنقة بانتظار هذه اللحظة. وبقي الوطواط أيضاً. أو ربما مات. فالوطاويط لا تعيش طويلاً. وأما المرأة فتحوّلت داخل الشرنقة. لم تتحوّل إلى فراشة كما تفعل الدودة. لكنها تحوّلت إلى عذراء من جديد. عذراء أرقّ من فراشة. عذراء نائمة. بعد خمسة أيام يهبط الساحر بها عن قمة الهضبة. بلى، الحَكَم هو الساحر نفسه. الساحر الذي يعيش في الخلاء. الخلاء الذي بدونه لا يصلح العالم. حوّلْ الطين إلى إناء، فالخلاء في الإناء هو الذي يجعله صالحاً للاستعمال. وهكذا أمر العالم. ومن هناك، من

الخلاء العميق، يجيء الساحر. كيف عثر على مدينة كوي جوين المفقودة لا ندري. لكنه عثر عليها تحت كثبان رملٍ. في بيتٍ كان قديماً قائماً وسط بساتين التوت عثر على الجميلة النائمة.

وسكت المنجمون ثم أفشوا السرّ:

- الذي يوقظها من سباتها بقبلةٍ على الشفتين يصبح ملكاً. لأن هكذا قررت السماء.

الجزء الأخير

الساحر (٢)

الطريق إلى القصر

وها هو الساحر من جديد يغادر الخلاء. يقطع الصحاري مع الحاكم الأزرق والفرسان، ثم يتركهم أسفل الهضبة، عند حافة الغابة، ويتابع الطريق وحده. يتسلق حتى القمة. يتأمل المدينة عند الغروب. يشمّ رائحة المرض المتصاعدة من الأرض. من سهول القمح والأرز والكتان والشعير والقطن. من قنوات الماء التي تخترق كين ساي. من البحيرة التي تغرق في الليل بينما رائحة الأسماك الميتة تخرج منها كالبخار. من جدران البيوت الموزعة على مربعات متطابقة. من الطريق الرئيسية التي تقسم المدينة إلى نصفين وقد تغطت أرضها الحجرية بالضفادع الميتة وريش الطيور. من الزرائب المزدحمة بالخنازير والأبقار والأغنام المريضة. من الجبل الأحمر الذي تعفن ترابه. من النهر الذي نَتُنَتْ مياهه. هكذا تصاعدت الرائحة المخيفة من كين ساي، ومن المملكة كلها، فيما الساحر يهبط الهضبة، ويراقب نزول الجسر، ويرى البوابة تُفتح له.

ولج الساحر الظلمات(*). لا قنديل واحد يشتعل. لا شمعة.

(*) ظلمات بعضها فوق بعض. هي المدخل لكل الخفيات. (النشيد الأول من «تاوتي تشينغ»).

ولا نار صغيرة. المنجمون أمروا بذلك. الحاكم قال للساحر، بينما يقطعون الوديان والتلال والسهول، أن كبير المنجمين رأى في خطوط السماء اضطراباً هائلاً، فأخبر أن السماء غاضبة لأن صراخ كين ساي قد كثُر وخطايا أهلها قد عظُمت جداً. حين سأله الحاكم: لماذا، أجابه كبير المنجمين: «آلاف البغايا في السوق العمومي، آلاف التجار الكذبة في باقي الأسواق، ليل ليس ليلاً من النيران والمشاعل، ذبائح تشوى وخمرة تُعبّ، شتائم وضجيج، أهكذا تكون مدينة السماء؟» عندئذٍ أمر الحاكم باغلاق السوق العمومي، وبمنع إشعال الشموع والقناديل والنيران ليلاً، وبحبس كل من يتكلم بصوت مرتفع... ولمزيدٍ من الصمت أوقف ضرب الصنوج(*) الذي يتم في كل ساعة من ساعات اليوم، كما وألغى عادة النفخ في الأبواق عند الفجر وعند الغروب.

التمعت حفنة نجوم في السماء المظلمة فسال منها نورٌ أبيض وأضاء الطريق أمام قدمي الساحر الحافيتين. رأى الساحر الريش الرمادي والأحمر. ورأى ضفادع تتقافز، بعضها أخضر، وبعضها أصفر. وسمع الأنين البعيد.

في الطريق حكى له الحاكم عن كل شيء. الحاكم الذي يرقص الآن مع الفرسان، وراء الهضبة. فيما الأحصنة تحترق في

(*) في ذلك الزمان كانت المدن تسير حسب ساعة موحدة. ويتم الإعلان عن انتهاء كل ساعة بعددٍ من ضربات الصنج والطبول.

مركز الدائرة، ورائحة القربان تتصاعد نحو سماء. الحاكم الأزرق روى للساحر كل ما حدث في المدينة، في المملكة، منذ عشرين سنة وحتى الآن. طوال أربعة أيام واصل الحاكم الهذيان. في الشمس وفي القمر تابع كلامه كالمحموم. كأنه هو المريض وليس الملك الراقد فوق سريره في قصر كين ساي. كان الحاكم الأزرق يتقيأ الكلمات من جوفه مرتجفاً بالنار. وكان الساحر يحدق إلى نقطة ثابتة في الفضاء تاركاً الهواء يحمله إلى حيث يحمله الهواء.

حوله ضجيج الحوافر ودهشة الفرسان. قال فارس لصاحبه:

ـ كيف يقدر أن يمشي بسرعة أحصنتنا؟

ردّ صاحب الفارس بسؤال:

ـ وكيف لا يترك أثراً خلفه؟

أجابه الأول:

ـ ربما هي الريح تمحو الأثر من خلفه.

سأله الآخر:

ـ ولكن انظرْ حوافر الخيل خلفنا! أتمحو الريح أثره وحسب؟

كان الساحر يسحب ثوبه ويتقدم. عظامه هشة، وعضلاته مرهفة. لكن الهوام لا تلسعه. والجوارح لا تنقضّ عليه. كان ينحني بين حين وآخر، إذ يرى عِرقاً أخضر في التراب، فيحفر حول العِرق، ويجذب من أعماق التربة جذراً بلون الخشب المحروق أو بلون الذهب أو بلون الـ «سانغ يه»(*). يدفع بالجذر

(*) ورق التوت الأبيض.

داخل طيّات ثوبه. يمسح العرق عن وجهه. يتابع التقدم بمحاذاة الأحصنة التي تخبّ. كان الغبار يصعد من تحت الحوافر وخلفها فيكشحه هواء خفي بعيداً عن جسد الساحر. ثم أن الغبار كان يجتمع كالغيم في السماء ويرمي بظلٍ حول الفرسان. فيما صوت يشبه البكاء يخرج من أثواب الساحر السوداء(*).

لكن، ماذا حكى الحاكم؟ وماذا قال؟

قال الحاكم للساحر ما لم يقلِه في البداية. ما كتمه في الكهف. في الكهف قال الحاكم إن الملك مريض، وإن أحداً لا يعرف سرّ مرضه. وأما في الطريق فإن الحاكم ترك عضلة لسانه تتحرك على سجيتها. فتوترت عضلة اللسان وانطلقت في هذيان بدا بلا نهاية، وبلا حدود. كأنه درب التبانة.

«سرّ مرض الملك ليس سرّاً. الملك اعتلت صحته فرقد في فراشه ولم يعد يأكل طعاماً لأن الملكة نامت قبل شهر(**). وسرّ رجوع الملكة إلى النوم بعد عشرين سنة من استيقاظها، هذا السر أيضاً ليس سرّاً». تابع الحاكم:

(*) من يمتلئ بالـ تي يمكن أن يشبه الوليد. الهوام لن تلسعه. السباع لن تمسك به. والجوارح لن تنقض عليه. ومع أن عضلاته مرهفة وعظامه هشة فإن قبضته شديدة. إنه لم يعرف شيئاً عن اتحاد الذكر والأنثى. ومع ذلك فإن بلبله ينتصب في بعض الأحيان. دليلاً على أن حيويته كاملة. وقد يبكي طوال اليوم دون أن يبح صوته. دليلاً على أن تناسقه تام. (النشيد الخامس والخمسون من الـ «تاوتي تشينغ»).

(**) حديث الحاكم بدأ في أول الطريق. الطريق استغرقت أربعة أيام. هذا يعني أن الملكة قد نامت قبل شهر وأربعة أيام من وصول الساحر إلى كين ساي.

- «أحدهم دخل على الملكة. تسلل إلى المخدع. كانت نائمة، ورقد إلى جانبها. في البداية حسبت الملكة أنه الملك. لأن الملك يدخل عليها دوماً وهي نصف نائمة، أو نائمة تماماً. ولكن الرائحة! شمّت الملكة رائحة الرجل فعرفت أنه ليس الملك. عندئذٍ استيقظت تماماً. وأرادت أن تصرخ لكن الرجل كشف لها هويته، قال لها هذا أنا، قال إسمه، وفي الظلمة أرادت أن تموت وأغمضت عينيها».

بعد مسيرة اليوم الأول بلغوا سفح تل يقف منعزلاً وسط مجرى النهر. تسلقوا التل ودخلوا المدينة التي تشكل تاجه. مدينة زن جيان الشهيرة بطيورها الخلابة الألوان. (يعيش هنا طيرٌ يلقب بملك الطواويس إذا وقعت عليه العين لم تستطع أن تزيح نظرها عنه، فإذا لم يأتِ صاحب الطير ويأخذه بقي الناظر أسير المنظر لأيام!).

دخلوا المدينة. بدلوا أحصنتهم المكدودة بأخرى مستريحة ثم انطلقوا من جديد. عند الظهيرة بدأ البخار يتصاعد من الأرض. شاهدوا القصعين يذبل وأوراقه تحترق. انحنى الساحر وجمع بعض الأوراق الذابلة. خبأها في ثوبه، ثم جلس أرضاً. ترجلوا عن أحصنتهم. جاءت غيمة ضخمة من أقصى الشرق، من حيث تجيء عادة الرياح الصحراوية، وتمركزت فوق رؤوسهم.

أشعلوا ناراً. ملأوا الإبريق بماء قربهم الجلدية. وضعوا الإبريق فوق النار، وأخرجوا ورق الشاي المخمر من جراب. لكن الساحر أبعد أيديهم عن الإبريق، ورمى في المياه التي تغلي بعض جذورٍ أخرجها من ثوبه. قال:

ـ الجنسنغ(*) سوف يحمينا من هذا القيظ.

شربوا المياه الساخنة. لم يحسوا بمرارتها. نظروا عالياً، ولاحظوا غرابة شكل الغيمة التي تظلّلهم. لم تكن مسطحة إطلاقاً. كانت كروية مثل كوكب، كروية مثل يقطينة. وعندما أطفأوا النار وركبوا الأحصنة من جديد شاهدوا دودة تتحرك في الغيمة، وتقضمها من الداخل. في اللحظة التالية يبست الغيمة، وتلاشت قطعاً في الهواء.

طوال ذلك الوقت، بينما يدخلون مدينة زن جيان التي تتوج التل، بينما يبدّلون الأحصنة، بينما يحترقون بنار الظهيرة، بينما يجلس الساحر وتظلّلهم الغيمة التي تشبه اليقطينة الصفراء، بينما يشربون جذر الجنسنغ المغلي في الماء، بينما يركبون الأحصنة من جديد، بينما الدودة تأكل الغيمة والغيمة تيبس كيقطينة عشش فيها الدود، طوال ذلك الوقت، كان لسان الحاكم لا يتوقف عن الحركة. حتى وهو يشرب الجنسنغ الساخن لم يتوقف عن الكلام.

بدأ الحاكم من البداية. من ذلك اليوم الذي مضى قبل عشرين سنة. وصف دخول الساحر إلى كين ساي. وصف الشرنقة الهائلة التي كان يحملها على كتفه. قال أن الساحر توقف مرة واحدة، في منتصف الطريق بين بوابة المدينة والقصر، وانحنى وغرف حفنة ماء من القناة القريبة، وبلل وجهه وشعره بها. وصف الحاكم العتمة التي كانت كالإطار حول الساحر. وصف حرارة الشمس التي كانت تلهب المدينة. وتكلم عن الصمت. قال إن أنفاس الساحر

(*) يُسمى أيضاً «رن شن». وهو جذر يُغلى في الماء ويُستخدم كعلاج ضد الحمّى وضربة الشمس والسعال. عرفه أطباء الصين منذ خمسة آلاف سنة.

كانت مسموعة. فجأة توقفت القرقعة والطرطقة وصمتت كل الأصوات. الجيوش التي تحاصر الأسوار تركت أسلحتها وتدفقت إلى المدينة عبر البوابة التي نسيها الحراس مفتوحة. الجميع كانوا قد سمعوا بنبوءة المنجمين. والجميع كانوا في انتظار الساحر. وفي انتظار الجميلة النائمة. تدفق الجند إلى قلب كين ساي، ومشوا خلف الساحر دون أن يتنفسوا. حين بلغ الساحر الساحة أمام القصر تلفت حوله. في اللحظة التالية رأى الرجال ينحدرون على الدرج الرخامي حاملين سريراً فُرشت فوقه أغطية الحرير. «وضع الساحر الشرنقة على السرير ونظر نحو المدخل. في المدخل وقفنا نحن الثلاثة. أخي الأكبر وأخي الأوسط وأنا. رائحة العرق كانت تفوح منا. وراقبناه يفك خيط الشرنقة».

وصف الحاكم ارتجافة الأخ الأكبر. نزل الأخ الأكبر الدرج فكاد يتعثر بثوبه الطويل. حين بلغ السرير حيث الشرنقة المشقوقة بالطول التفت نحو الساحر. «كان يريد من الساحر أن يفتح الشرنقة. لكن الساحر لم يتقدم خطوة واحدة».

وصف الحاكم السكون. وقطرات العرق التي تساقطت كأول المطر فوق التراب. قال إن رائحة المطر ملأت المدينة التي قبل لحظة فقط كانت غارقة في الدخان والشتائم. ووصف الحاكم الهدوء الذي كان يصدر عن الشرنقة المشقوقة. «حتى تلك اللحظة لم نكن قادرين على رؤية العذراء. الساحر جذب خيطاً، ثم شقّ الشرنقة بالطول. شقّها بسهولة، وعرفنا من يده التي ارتجفت أنه قد رأى الجميلة النائمة من قبل. عندئذٍ سمعنا صوته يحذرنا: لا تنظروا».

ما كانوا يعرفون (والحاكم مثله مثلهم) أن الساحر قد فتح الشرنقة عند قمة الهضبة، وبعد ذلك لفّها من جديد. كل ما قاله كان:

ـ لا تنظروا.

أعاد الحاكم وصف ارتجافة الأخ الأكبر. «أخذ يرتعد كأنه فوق جبال الهملايا. بدأت رائحة الثلج تغزو أنوفنا. سأل أخي الساحر وهو ينكس رأسه ولا يجرؤ على النظر إلى أعماق الشرنقة، سأله: لماذا لا يفتحها أمام الجميع؟».

أجابه الساحر:

ـ هذا جزء من الامتحان. الملك الحقيقي يثق بـ التاو. ثقته بـ التاو تضاعف الـ كي(*) في قلبه. الـ كي تمنح روحه الشجاعة. الشجاعة تحرك عضلات ذراعيه.

وصف الحاكم الصمت مرة أخرى. قال أنهم سمعوا في السكون نبضات قلب الأخ الأكبر. كل كين ساي سمعت القلب ينبض. كل كين ساي رأت الأصابع ترتعش بينما تلامس شقّ الشرنقة. وكل كين ساي اختنقت بأنفاسها حين انحنى الأخ الأكبر بوجهه فوق الشقّ. «دخلت أصابعه في الشق ثم تجمدت. كل عضلاته تجمدت. ثم رأينا وجهه. كان كالمخطوف. وجه لا يشبه أي وجه. تبدل وجهه حين رأى النائمة. تبدل فلم يعد يشبه وجهاً نعرفه. بات وجهاً هنا وليس هنا. نراه ولا نراه. وجه كأنه وجه الساحر. ولكنه أيضاً لا يشبه وجه الساحر».

(*) الطاقة.

قال الحاكم إن الأخ الأكبر لم يُقبّل النائمة. «رأينا أنفه يختفي داخل شقّ الشرنقة ثم رأيناه يتراجع مسرعاً ويقف على بعد خطوتين. ثم خفض عينيه وغرز نظراته في التراب».

من بعده نزل الأخ الأوسط. لكن الساحر ثبّته بنظرة في أسفل الدرج الرخامي، ثم توجه بكلامه إلى الأخ الأصغر:

ـ تعال أنت أولاً.

«أنا فزعت. رأيت وجه أخي الأكبر بينما يقفز إلى الوراء وفزعت. لماذا يريدني أن أجرب قبل أخي الأوسط؟ أنا الأصغر وهو يكبرني سناً، فلماذا لا يجرب هو أولاً».

قال الحاكم أنه لم يفهم لماذا أراده الساحر أن يجرب قبل أخيه. قال: «بينما أنزل الدرج، بينما أتجاوز أخي الأوسط، بينما اقترب من الساحر والشرنقة، عرفت أنني لن أوقظها، وأنني لست الملك».

قال الحاكم إنه خاف. «خفت وتراجعت. سألني الساحر لماذا خفت. أجبته أن حظي عاثر. سألني هل أعرف لماذا حظي عاثر. قلت إن الحظ حظ. وهذا ما أعطتني إياه السماء، فماذا أعمل. فأشاح بوجهه عني، وقال مكلماً الهواء ـ أو الجميع:

ـ يقول العزيز لاو تسه: تَقَبّلْ الحظ العاثر كظرف بشري. فالحظ العاثر يأتي من كونك ذا جسد. فبدون الجسد كيف يمكن أن يكون الحظ العاثر؟

«حين قال الساحر هذا خجلت. خجلت وتقدمت وانحنيت فوق شقّ الشرنقة. فرأيتها. رأيت رموشها. رأيت أنفها. رأيت

الشعر على جبهتها. لم أعرف لون شعرها. لم أعرف لون بشرتها. لم أعرف. . . كنت ارتعد. أحسست بمادة لا تُرى تحتل الفضاء بين وجهي ووجهها. كانت مادة تشبه حرارة النار. لهب لا يُرى ولا يُلمس لكنه يحرق بالتأكيد. وأحسست به. لكنه لم يكن ساخناً. بل بارداً كالجليد. كأنني أغرق في بركة يغطيها الجليد. كأنني سمكة في الثلج. ولم أكره ذلك. كان جميلاً. أجمل من أي إحساس. لكني فزعت. فزعت وتراجعت كما أخي الأكبر من قبلي».

كان الحاكم يتحدث كأنه يتحدث إلى نفسه. كأنه يتحدث إلى الخلاء. الفرسان يعرفون الحكاية. قبل عشرين سنة معظمهم كانوا فتياناً يلعبون في شوارع كين ساي. وحين دخل الساحر ركضوا خلفه، وبعيونهم أبصروا كل شيء.

من يكلم الحاكم؟

أحياناً يسرع وينزل عن الحصان ويركض بمحاذاة الساحر. يتوجه بالكلام إليه وحده. وفي أحيانٍ أخرى يتأخّر عن القافلة. يتأرجح وحده في المؤخرة على ظهر حصانه المبلل بالعرق متابعاً هذيانه. بعد مسيرة يومين بدأ يتكلم عن الملكة. وعن أخيه الأوسط الذي صار ملكاً.

«جاء الملك إلى طبيبه الخاص تاي، وطلب منه النصيحة. الملك يريد بنين والملكة أيضاً. كل شيء على ما يرام لكن لماذا لا تلد الملكة. قال له السيد تاي إن نساء كثيرات يعجزن عن الإنجاب. زعق الملك: ولكنها الملكة، ولن أقترن بغيرها أبداً.

كل نساء الأرض تماثيل. هي وحدها على قيد الحياة. فكيف لا تلد؟ أجابه السيد تاي: وحده الساحر يعلم».

وصف الحاكم غضب الملك. فحديث الملك مع طبيبه الخاص تاي حدث بعد سنة بالتمام من تتويجه ملكاً. قال الحاكم:

ـ كان في كين ساي يقضي الصيف، وكنت إلى جانبه في معظم الأوقات. فهو جعلني نائبه الأول وحاكماً على مدينته. ورأيت غضبه. وجهه يحتقن بالدم وأطرافه ترتجف. ويزعق: أين الساحر؟ ولكن أين الساحر؟.

طلب الملك المنجمين إليه. سألهم عن الساحر. أجابوه:

ـ الحكيم يتبع سبيل السماء. فهو ينجز عمله ثم ينسحب. حين قبّلتم جلالتكم العذراء النائمة، حين استيقظت العذراء من سباتها، تقدم الساحر منك، همس كلمات في أذنك ثم تلاشى. هل تلاشى في الهواء كالبخار؟ هل أحاط نفسه بالظلمة كما يفعل السحرة؟ هل التفتنا بأبصارنا عنه ونظرنا نحو العذراء فلم ننتبه لمغادرته المدينة؟ ذلك ما لا نعلمه. ولكن، ربما كانت كلمات الساحر التي أودعها أذنك هي السرّ.

اشتعل الملك بالغيظ. خبط كأسه أرضاً، قال:

ـ ليس سرّاً. كلماته تعرفونها. كلماته مكتوبة في كتب الأقدمين. أودعني وصية المُلك. وصية التاو والأرض والسماء(*).

(*) التاو جليل. السماء جليلة. الأرض جليلة. والملك أيضاً جليل. إنها القوى الأربع للوجود. والملك واحد منها. الإنسان يتبع الأرض. الأرض تتبع التاو. والتاو يتبع ما هو طبيعي. (النشيد الخامس والعشرون من الـ «تاوتي تشينغ»).

وكنت أسمعه ولا أسمعه. كنت أسبح في الزرقة الخارجة من عيني الملكة وأضيع. كنتُ...

طلب المنجمون من الملك فرصة للتشاور. بعد ساعة رجعوا، وقالوا:

ـ كلمات الساحر لا يُسبر غورها. هي القمر لكننا لا نراه. كل ما نراه هو إصبع يدل على القمر.

قال الملك:

ـ قلبي ثقيل كصخرة. لا تكلموني بالطلاسم.

أجابوه:

ـ الملك جليل. والغابرون تحدثوا عن رجال لم تلد لهم زوجاتهم بنين. بين هؤلاء الرجال وُجد ملوك. ماذا يفعل الملك إذا لم تمنحه الملكة وريثاً لعرشه؟

هتف الملك وقد فرغ صبره:

ـ ماذا يفعل؟

أجابوه:

ـ لا يفعل شيئاً. الملكة هي التي تفعل.

خلال هذا الحديث كانت الملكة نائمة. المخدع حيث تنام الملكة بعيد عن البلاط، حيث العرش ومجلس الملك، مسافة رمية السهم. فمجلس الملك قائم في المركز من قصر كين ساي. وأما المخدع الملكي فيقع في أقصى الجناح الغربي المطل على البحيرة الكبرى. لكن في اللحظة ذاتها التي أعلن المنجمون خلالها أن

«الملكة هي التي تفعل» سُمعت الصرخة آتية من أقصى الجناح الغربي. الملك قفز عن العرش وركض. الحاشية كلّها ركضت.

من صرخ تلك الصرخة؟ الملكة؟ لا، الملكة لم تصرخ. جاريتها المفضلة تاتشون هي التي صرخت.

قالت تاتشون للوصيفات فيما بعد:

ـ كانت الملكة نائمة، وأنا جالسة على السرير العريض قربها أدلك قدميها بزيت الليمون. الملكة تحب أن أدلكها بينما تنام. لكنها فجأة استيقظت وكلمتني: «ما يقوله المنجمون للملك صحيح». سألتها ماذا تقصد. قالت: «الملك يتكلم الآن مع المنجمين. الملك يريد بنين. وأنا لا ألد. ولكني أعرف كيف أعطيه البنين، لأن الغابرين جاؤوا إلى منامي قبل لحظة وأخبروني. تاتشون أيتها الأمينة، سأطلب منك طلباً».

كانت تاتشون ترتجف فيما تروي ما حدث لها، قالت:

ـ قلت للملكة إنني عبدتها، وإنني لا أحبها كقطعة من جسمي وحسب، بل وأكثر مما أحب حياتي نفسها. فقالت لي الملكة: «تاتشون، سوف تضطجعين مع جلالة الملك وتنجبين لي بنين. هذا هو طلبي».

في اليوم الثالث ركبوا العبّارات المصنوعة من ألياف اليقطين ومن قصب الخيزران المعقود بخيوط الحرير. قطعوا البحيرات الخمس المالحة وأخذوا أحصنة جديدة من وكلاء الملك الواقفين

بانتظارهم. قرب محطة من محطات البريد أكلوا وطاويط(*) مشوية على نار الصنوبر. كانت رائحة الصنوبر تتخلل قطع اللحم الطرية. شربوا خمرة الأرُزّ، وشكروا ناظر المحطة. الساحر لم يقرب مائدتهم. جلس على مبعدة، يأكل بعض الجزر الأحمر المغسول بالماء، ويتأمل طيور الحجل تتقافز في الجلول القريبة.

كان الحاكم ما يزال يهذي. يقضم الأجنحة المحمرة بنار الصنوبر، يدلق الخمرة في جوفه، ويتكلم. كأنه سيموت إذا سكت لحظة. كأن هذه الكلمات هي الهواء الذي يتنفسه.

بدأ يتحدث عن التوأمين. فالجارية تاتشون انصاعت لأمر جلالة الملكة واضطجعت مع الملك، فأنجبت توأمين. ولولا إصرار الملكة لما قبل الملك الإضطجاع مع تاتشون. قال الحاكم:

ـ تاتشون من أجمل النساء على سطح الأرض. لكن الملك يعلم أن لا إمرأة في هذا العالم تشبه جلالة الملكة. فالملكة هي المرأة الكاملة، هي إبنة السماء.

روى الحاكم عن التوأمين. قال إن الملكة هي التي اختارت اسميهما. الذي خرج من بطن تاتشون أولاً أسمته هوي. والخارج

(*) يختص بتربيتها مزارع خبير. فيحرص على تكاثرها داخل كهف قريب من مستنقع. فالمستنقع يجذب الهوام والحشرات وهذا هو غذاء الوطاويط. ينتقي أكبرها للشواء. ولا يقترب منها خلال موسم التزاوج والتكاثر. أما قاذوراتها وروثها فينتظر حتى يغطي أرض الكهف ومدخله ثم يجمعه مستخدماً رفشاً وعربة ويبيعه كسماد طبيعي. والسماد الذي تنتجه قاذورات الوطاويط المتخمرة يفوق بنوعيته معظم أنواع الأسمدة العضوية.

من بعده أسمته ياو. وكان ياو يتمسك بعقب هوي فيما يغادر بطن تاتشون، المرأة التي حملتهما في بطنها طوال تسعة أشهر وأرضعتهما طوال سنة. كانت الملكة تراقبها ـ حين تكون مستيقظة فهي تنام عشرين ساعة في اليوم ـ وتضحك لها وللتوأمين. حين يحضر الملك تغادر تاتشون المخدع مع التوأمين. وأحياناً تبقى فتأتي إحدى الوصيفات وتصطحب التوأمين إلى المخدع الخارجي أو إلى الحديقة.

أنجبت تاتشون للملك بنات كثيرات. وأيضاً بطلب من الملكة. فيما كبر التوأمان.

قال الحاكم:

ـ وحين بلغا الثامنة، قبل عشر سنوات، كان الملك في كين ساي، عندي، كعادته في كل صيف. كنا نجلس معاً، أنا وزوجتي وأولادي والملكة والملك وهوي، الأمير هوي، في حديقة القصر، نتفرج على الطيور تحلق فوق وجه البحيرة الصغرى المحفورة منذ أيام الملك بنغ. نشرب عصير الفواكه، ونستمتع بالنسائم الصادرة عن «الجبل الأحمر»(*)، حين رأينا الأمير ياو

(*) جبل ترابي مصطنع، ارتفاعه مائة خطوة، ومحيطه عند القاعدة يقارب الميل. يقع على مرمى السهم تقريباً من الحديقة الملكية. تغطيه الأشجار الدائمة الخضرة كالصنوبر والسبريس، بالإضافة إلى أنواع عديدة من الشجر والنبات. كان الملك الراحل لي «النمر» كلما تلقى معلومات عن شجرة جميلة تنمو بأي مكان في المملكة، أمر بها فاقتلعت من جذورها مع التربة المحيطة بها، مهما بلغت ضخامتها وعظم وزنها، ثم نُقلت إلى هنا على ظهور الأفيال. وتتوج قمة هذا الجبل غابة من أشجار القيقب، هي التي أعطت للجبل اسمه. وتمر عند سفح الجبل قناة الماء التي تربط النهر بالبحيرة الصغرى التي يمتد شاطئها بمحاذاة حافة الحديقة الملكية. ولولا =

يهرع نحونا باكياً، شعره منفوش، واللون الأحمر يغطي بياض عينيه. قفز إلى حضن الملكة وكان يصرخ لأن هوي قد عاركه وضربه. سأله الملك: متى فعل هوي ذلك؟ متى عاركك هوي وضربك؟ فأجابه ياو: «قبل دقيقة» فقال الملك: «ولكن هوي جالس هنا معنا منذ ساعة. فكيف يضربك من هنا؟» فأجابه ياو: «في المنام. جاء إليّ في المنام وضربني». تدخلت الملكة وقالت لياو إن هوي يحبّه وهو لم يعاركه أو يضربه أبداً. فأجاب ياو: «بلى، هوي عاركني مرة». سأله الملك: «متى كان عراككما؟» فأجابه ياو وهو يتلفت نحو هوي غاضباً: «في بطن تاتشون. بينما نولد. هناك عاركني. كانت السماء تريدني أن أخرج أولاً، لكنه زاحمني في بطن تاتشون وعصى أمر السماء وعاركني حتى كدنا نختنق، ثم دفعني إلى الداخل بقدمه، وخرج قبلي كي يكون هو البكر». أطلق الملك ضحكة. حضنت الملكة ياو الغاضب. ابتسمت تاتشون القاعدة إلى يمين الملكة. ضحكتُ أنا. والتفت الملك نحو هوي، الأمير هوي، وأشار إليه قائلاً: «هوي عصى السماء، لذلك يكون اسمه هوي العاصي». ومنذئذٍ بات هكذا لقب الأمير هوي: «العاصي».

تابع الحاكم كلامه. قال إن هوي رجل في فمه صيد. من الصباح حتى المساء يركض في الغابات والحقول، مطارداً النمور

= البحيرة لما وُجد هذا الجبل. ذلك أن حجارته وتربته مأخوذة من أرض الحفرة التي شكلت، حين نزلت إليها مياه النهر، ما يُسمى الآن بـ «البحيرة الصغرى».

والدببة والببور. والملك يحبّه ويسمح له باصطحاب كلابه الخاصة إلى الصيد. الملك أيضاً كان يحب الصيد. إنما قبل سنوات سقط عن حصانه وكاد أن يكسر وركه. منذ ذلك الحين ما عاد يخرج إلى الصيد إلاً نادراً. لكنه ما يزال يحتفظ بالخنجر الشهير. خنجر الملك لي. الخنجر الذي أهداه الملك بنغ للملك لي حين كان الملك لي ما يزال صبياً. فبذلك الخنجر قتل الملك لي أول نمر في حياته. كان النمر يحتضر جريحاً في حفرة. أخطر النمور نمر جريح. لكن لي لم يخف وقفز إلى الحفرة فقتل النّمر وحظي بالخنجر هدية من أخيه. بذلك الخنجر ذاته قتل الأعداء والضواري على السواء. وبذلك الخنجر طعن النمر الذي قضى عليه. ماتا معاً. الملك ينزف من عنقه حيث عضّته أنياب النمر. والنمر ينزف من بطنه حيث غرز الملك خنجره. الملك كان مغطى بالجروح وآثار المخالب. وفروة النمر الصفراء المخططة بالأسود كانت أيضاً مغطاة بالجروح وآثار الأظافر. نزفا معاً، سال دم الملك في دم النمر، ودم النمر في دم الملك. هكذا مات الملك لي.

وأما... قال الحاكم «وأما» ثم تلعثم وسكت. سكت لجزء من الثانية ثم انطلق من جديد.

ـ الآن يحتضر ملكنا في قصره. لا يأكل ولا يشرب. يسقيه الطبيب الحساء فيتقيّأ. نحدّثه فلا يجيبنا. يدفن وجهه في السرير ويشهق. كأنه يبكي. ملكنا. فكيف ننقذه؟ كيف ننقذ المملكة؟

عبروا سهول الأرزّ المغطاة بالماء. حلّقت أسراب البجع التي تهاجر من المملكة. شاهدوا الذباب والبعوض يفقس من التراب.

البهائم التي نفقت خلال الأيام الماضية كانت مطروحة على جانبي الطريق. منفوخة بالغازات. الغربان تنقر لحمها بالمناقير القاسية، فتعري هياكلها العظمية. وشمّوا الرائحة وسمعوا الطنين.

قال الحاكم:

ـ أسراب البجع هذه تأتي من كين ساي. منذ أربعين سنة ومثواها البحيرة الصغرى، لا تهجرها أبداً. هناك نزرع لها الدخن والجاورس وأصناف الحبوب التي ترغب. هناك نربي الأسماك أيضاً من أجل إطعام هذه البجعات. وها هي تغادرنا الآن؟ أين ستجد سمكاً كسمك كين ساي البدين(*)! إن سمكة واحدة من البحيرة الكبرى تكفي طعاماً لعائلة ليومين، لكن كل الأسماك ماتت في بحيرات كين ساي، وها هو الموت حولنا في كل مكان. فماذا نفعل؟

لاحظوا أن أعداد الجيف تتعاظم كلما اقتربوا من كين ساي.

قال أحد النبلاء الفرسان:

ـ كأنه حجر سقط فوق صفحة ماء، فتسبب بتموج دائرة صغيرة حول المركز حيث سقط. من الدائرة الصغيرة ستخرج موجة أكبر. وعن الموجة الأكبر ستصدر موجة أكبر أيضاً. وهكذا. المرض بدأ في كين ساي، لكنه ينتشر، وقريباً يضرب دائرته حول المملكة.

فقال صاحبه:

(*) يطرح أهالي المدينة الأقذار وبقايا الأطعمة في القنوات. والقنوات تأخذ هذه البقايا إلى البحيرة الكبرى. وهناك تلتهمها الأسماك فيكبر حجمها بصورة لافتة.

ـ ذلك حدث وانتهى. قطعان الماشية بدأت تنفق في شمالي النهر أيضاً والذباب والبعوض أخذ يغزو كاتاي.

وتكلم فارسٌ نبيلٌ آخر:

ـ السهول حول سايان فو يبست. تساقط عليها مطر مياهه مالحة وله رائحة النار. ثم ضربها البرد. ضرب البرد جميع أعشاب الحقول وكسّر جميع الأشجار. حبّة البرد في حجم ثمرة الكمثرى، كانت تقع على رأس الثور فتقتله. الشعير كان مسبلاً، والكتّان كان مبزراً، فضُربا. ولكن الحنطة كانت متأخرة فنجت.

وهمس أحد الفرسان:

ـ وحاكم كاتاي، نائب الملك الثاني، يرسل الهدايا إلى الإمبراطور في كانبالو ويطلب منه تقسيم مملكة مانجي إلى قسمين. يريد أن يكون ملكاً على المملكة العليا، هكذا يسميها.

أجابه فارس آخر:

ـ والملك، ملكنا، لا يريد الخروج من مرضه. والجوع يقترب.

عند ذكر الجوع صمتوا. الآباء أخبروهم عن سنوات الجراد. حين تهبط أسراب الجراد فوق السهول يزول اللون الأخضر عن سطح الأرض. حتى الغابات تزول. حتى الجبال الخضراء تصبح جرداء قاحلة. ركبوا في خشوع، دون كلمة. وأما الحاكم فواصل هذيانه الذي لا ينقطع، بينما الحصان تحته يلهث، والغبار يتصاعد من حوله في حلقات.

تابع الحاكم حديث التوأمين. وبعد أن وصف ولع هوي بالصيد، بمطاردة النمور وبمطاردة النساء، بعد أن سرد بعض أشهر مغامراته في السوق العمومي حيث تتصارع الغانيات من أجله، أخذ يتحدث عن ياو.

قال إن ياو صاحب خطوط. حامل ريشة ودواة حبر ورقعة مشدودة في إطار من خشب. يقضي النهار في غابات الجبل الأحمر يرسم شجرة أو طيراً أو قناة ماء أو طريقاً. هكذا ياو. يرابط عند شاطئ البحيرة الكبرى ليرسم خط البحيرة البعيد، والشمس تنزل وتغيب خلفه. بالحبر الأسود فقط يرسم كل الألوان. قال الحاكم:

ـ هذا يبدو مستحيلاً. لكن هذا ما يفعله.

قال إنه رسم الملك. ورسم الرسم الجداري الضخم الذي يزين بهو الاستقبال. رسمه على لوحة صغيرة، بلى، الرسم الذي تطلب إنجازه عمل أكثر من مئة مصور جاء بهم الملك بنغ قبل خمس وأربعين سنة من جميع أنحاء الإمبراطورية. من يصدق هذا؟ وحده استطاع ياو أن ينسخ الرسم الجداري على لوحة من لوحاته!

ورسم تاتشون، الجارية التي حملته في بطنها. ورسم الملكة وهي نائمة. ورسم ناظر القصر. ورسم السيد تاي طبيب الملك الخاص. ورسم المستشار الإمبراطوري(*) السيد لاو. ورسم عمّه، حاكم كين ساي. ورسم عمّه الآخر، حاكم كاتاي. لكن حين أراد أن يرسم هوي قال هوي إن ثمة نمراً ينتظره في السهل كي يصيده، وهرب، ولم يقبل بالجلوس لكي يرسمه ياو. فقال الملك:

(*) أحد أهم مرافقي الملك. وهو يشكل صلة الوصل الأساسية بين كل ملك وبين الإمبراطور المقيم في كانبالو.

ـ تقدر أن ترسمه دون أن يجلس أمامك.

ابتسمت الملكة. وضحكت تاتشون بخفرٍ. وقال ياو:

ـ فعلاً.

ثم أمر الوصيفات فجاؤوا له بمرآة كبيرة فجلس قبالتها وبدأ يرسم. رسم صورته في المرآة ثم جعل الحاشية تنظر إلى اللوحة وتصاب بالدهشة. وأما الملك فقال:

ـ لكن هوي ليس نحيلاً هكذا.

ضحك الملك متابعاً:

ـ عليك أن تتناول ما يتناوله من طعام كي تتمكن من تصويره.

ذلك أن ياو نحيل، وأما هوي فصاحب بدانة وعضلات. وفي ما عدا ذلك فهما يتطابقان في الملامح تطابقاً مذهلاً.

قطعوا المرج الأخضر. سمعوا النهر إلى يسارهم، تحت، حيث تنحدر الأرض. أشرفوا على الغابة. الساحر هو الذي جعلهم يتقدمون من هنا. كانوا على الطريق الرئيسية في البداية، يتوجهون في خط مستقيم شمالاً، نحو المنعطف، حيث تبدأ الطريق التي تخترق جدار الغابات نحو السور الشرقي لمدينة كين ساي. الطريق التي شقّها الملك بنغ. لكن الساحر انعطف ونزل بين صفّ الأشجار إلى يساره، وغاب في أعشاب المرج، فلحقوا به. تساءلوا لماذا لم تذبل جميع أعشاب هذا المرج بعد. ثم لاحظوا أنها بالفعل على وشك الإصفرار والذبول، فقد كانت قاسية غير طرية فكأن النسغ قد سُحب منها.

تقدمهم الساحر نحو الغابة. كان الحاكم يتحدث عن الإشاعة.

قال إنها انطلقت من السوق العمومي. فالغانيات بدأن الكلام قبل أشهر من حدوث الكارثة، قبل أشهر من خلود الملكة إلى النوم. بلى، الإشاعة بدأت قبل سنة تقريباً، لكن الجميع خافوا، فمن يجرؤ على إيصال إشاعة كهذه إلى أذن الملك؟

قال الحاكم:

ـ قالت الغواني إن الأمير هوي قد وقع في غرام الملكة. الملكة التي لا تظهر على طبقة النبلاء أو على الشعب عموماً إلاّ بعد أن تغطي وجهها ببرقع منعاً للفتنة، وذلك تبعاً لما قاله الغابرون. فـ «بدون صورة لا تكون رغبة» هكذا قالوا. والملكة تغطي وجهها وتحجب الصورة من أجل ذلك. بهذه الطريقة تنعم كل الأشياء بسلام. فما من خطيئة أعظم من الرغبة. ولا من لعنة ألعن من الجشع. ولا سوء حظ أشد من أن يريد المرء لنفسه شيئاً. هكذا علّمتنا كتب الحكماء. ومن هنا فإن من يعرف أن الكافي هو الكافي يحصل على الكفاية دوماً. والملكة كانت تعلم كل هذا، لأنها وكما أخبرنا المنجمون قبل عشرين سنة، جاءت من مدينة لعنتها السماء. واللعنة حلّت على المدينة عندما تقاتل الصديقان من أجل ملكتنا، التي كانت آنذاك بلا لقب، والكلّ يدعونها لي تشي. من أجل ذلك كلّه كانت الملكة تحفظ وجهها عن العيون، ومن أجل ذلك قال الساحر لنا حين جاء بها إلى المدينة: «لا تنظروا». فالملكة للملك. والملك جليل. وكما قال الحكيم القديم لاو تسه: عدم النظر إلى المرغوبات يمنع تشوش الفؤاد. ولكن من كان يحسب أن الابن يمكن أن يقع في غرام الأم؟ وهل كان يُفترض بالملكة ألا تخلع البرقع حتى أمام التوأمين؟

دخل الساحر بين أشجار الغابة. ترجل الفرسان عن أحصنتهم

وسحبوها خلفهم بالأرسنة. طرطقت الأغصان اليابسة تحت الأقدام. سُمع حفيف الورق فوق الرؤوس. فاحت رائحة الغابة. رائحة التراب الرطب. ورائحة الطحالب والفطريات. والحاكم ما يزال يهذي. وعتمة الغابة تزداد كثافة. أشعة الشمس تلوح في خيوط هنا وهناك، نازلة من بين الأغصان والأوراق ترسم ظلالاً وأشكالاً جميلة فوق الأرض المعتمة، حيث التراب والورق المتعفن وريش الطيور والحشرات.

قال الحاكم:

ـ في تلك الليلة الملعونة، بعد أن غادر الشبح المتسلل مخدع الملكة قرعت الملكة جرساً فدخلت عليها تاتشون والوصيفات. نظرت الملكة إليهن كأنها لا تنظر إليهن. كان المخدع مظلماً لكنهن دخلن مع الشموع. ظهر وجه الملكة في الضوء الأصفر كأنه ليس وجهها. كأنها قد رأت للتو رسول الموت. ولفظت كلمة واحدة(*)، قالت الاسم، إسم الرجل، الاسم الذي أودعه الرجل أذنها، ثم أغمضت عينيها ونامت. منذ ذلك اليوم لم تستيقظ. منذ ذلك اليوم والملك مريض.

كانوا قد بلغوا طرف الغابة، وختم الحاكم كلامه:

ـ كيف استطاع الأمير هوي أن يقوم بذلك؟ كيف كسّر كل القوانين ورمى بالمملكة إلى التهلكة؟

أمر الساحر بجمع أكوام حطب في دائرة فسيحة، قال:

(*) إحدى الوصيفات، وتُدعى مينغ لينغ، كرّرت ما لفظته الملكة هكذا: «رجل، جاء، دخل فراشي، حاولت، قال إنه، سمعت صوته، هوي».

ـ أعدوا للقربان. سوف تذبحون الأحصنة. ولن تدخلوا كين ساي إلاً بعد انطفاء النيران. وإياكم وأن ترموا وسط النار بحصان يحتضر.

أدار لهم ظهره، وبدأ يتسلق الهضبة. فيما الحاكم الأزرق يكرر آخر جملة ثم يسكت:

ـ الملكة النائمة حسبت أولاً أنه الملك. ثم عرفت أنه ليس الملك، فقال لها: «لا تخافي، هذا أنا، هوي». كيف استطاع أن يفعل ذلك؟ أن يُهلك المملكة والملك والملكة؟ كيف؟

تقدم الساحر في ظلمات كين ساي. ظلمات فوق ظلمات. وطريق من الحجارة تغطيها الضفادع والحشرات. تنطلق ألسنة الضفادع، تلتقط الهوام، تلتهمها. تتخم الضفادع، يصل المرض إلى بطونها، تنقلب وتموت، فتهاجمها الهوام. في الزوايا ينسج العنكبوت بيته فيمدّ خيطاً من فمه ويقفز من جدار إلى جدار. يمدّ الخيط ويشبكه ويلحم النسيج بلعابه. ثم يكمن في زاوية البيت منتظراً حشرة تعلق. وبعد أن تعلق يمصّ الدم منها، والحشرة تطنّ متألمة. يسحبها بعد أن يلفّها بخيط إلى شق أمين. فبيته قد تسقط عليه ذرة تراب، أو قطرة ماء فتهدمه. ويأكل العنكبوت الحشرة فيصل المرض إلى جسمه. عيونه الست يخبطها العمى، وخيطه ينقطع. فيقع، ويعلق بخيوطه، ثم يهدم بيته، ويسقط على التراب. والساحر يرى الذباب يطنّ فوق عيون العنكبوت، ويرى البعوض يحطّ، ويرى المعاقص. فيخطو بقدمه فوقها، ولا يدعسها، ويتابع طريقه نحو قصر الملك. نور النجوم يرسم دائرة أمام خطواته، وهو يغمض عينيه.

قصر كين ساي

تسلق الساحر الدرج الرخامي. في باب بهو الاستقبال وقف الحاكم الأحمر في انتظاره، وقد أمسك بشمعدان من ذهب يحمل خمس شموع طويلة. قال الحاكم:

ـ الملك يحتضر. لم أستطع الوصول إلاَّ هذا الصباح. وجلبت معي أطباء الإمبراطورية. ولكنهم لم يقدروا أن..

أسكته الساحر بإشارة من يده. تجاوزه، ودخل إلى القصر.

كان الحاكم الأحمر واثقاً أن الساحر لم يدخل القصر من قبل، وواثقاً أن الساحر دخل كين ساي مرة واحدة فقط، قبل عشرين سنة، وبقي فيها للحظات، ثم اختفى. فكيف يتحرك الساحر في متاهة هذه الممرات المتشابكة وكأنه عاش فيها منذ أن وُلد؟

فكر الحاكم الأحمر، الأخ الأكبر للملك ونائبه الثاني وحاكم عاصمة مملكته، فكر الحاكم الأحمر أن الساحر ربما يكون قد رأى متاهة هذا القصر في منام.

كان الساحر يسبح في عتمة المتاهة الباردة، والحاكم الأحمر خلفه يلهث راكضاً مع الشمعدان. انطفأت الشمعة الأولى ثم الثانية

ثم الثالثة. وحين انطفأت الرابعة خاف الحاكم الأحمر وتوقف عن الركض، وقد عرف أنه لن يستطيع اللحاق بساحرٍ. في تلك اللحظة تنهد خائباً فانطفأت الشمعة الخامسة أيضاً، ووجد نفسه ضائعاً في الظلام.

وأما الساحر فكان يتبع أنفه: التقط رائحة الأعشاب الطبية التي تسبح في الجو فتبعها إلى مصدرها، فوجد نفسه أمام باب من خشب طُعم بالجواهر الكريمة الشديدة اللمعان. (كان الضوء يخرج من الجواهر ذاتها).

دفع الساحر الباب ودخل إلى غرفة الملك.

كانت الغرفة مزدحمة بالنبلاء والأطباء والمنجمين. رأى الملك نائماً على سرير أبيض عريض. بدا الملك أصغر من صبي، ولونه أسود كالخشب المحروق. ورأى قرب سرير الملك شاباً جميلاً، نحيلاً كغصن الرمان، قد جلس على مقعد من الخيزران وامتلأت عيناه بالدموع. عرف أنه ياو.

تنحى الساحر جانباً. أخذ ينظر إلى الجدران العارية فيما الحشد يغادر الغرفة. لم يرَ سجاجيد تغطي الجدران، لم يرَ فراءً وأصوافاً وبسطاً تغطي الأرض الحجرية. غير السرير والمقعد الخيزراني لم يرَ أثاثاً في الغرفة. كانت الغرفة عارية من الأثاث، كأنها ليست غرفة ملك. على الجدار المقابل رأى مرآة بمساحة صوف خروف(*). قرب المرآة باب يفضي إلى شرفةٍ مطلةٍ على

(*) المقصود رقعة من صوف الخروف، وهي جلدته، ومساحتها تقارب متراً مربعاً.

الحديقة والبحيرة الصغرى.

لم يبقَ في الغرفة إلاً ياو وطبيب الملك الأول، السيد تاي. كان الضوء الأصفر ينزل من شمعدان معلق من الجدار فوق رأس الملك بثلاثة أمتار. تقدم الساحر نحو السرير، وانحنى فوق وجه الملك.

السنوات، وهذا المرض، بدّلا الوجه اليافع. الشعر الذي كان أسود حوّله الشيب إلى كتلة من الثلج. الجبهة العريضة حفرتها التجاعيد. الشفتان تشققتا ومال لونهما إلى الأسود. قطرات العرق كانت تكرج على الوجنتين الممصوتين إلى الداخل. ولون العرق كان داكناً كالوحل.

قال السيد تاي هامساً:

ـ الـ كي اضمحلت من جسده. الـ «ين» والـ «يانغ»(*) دمرا بعضهما بعضاً. إنه يتوارى.

رفع الأمير ياو عينيه ونظر إلى الساحر قائلاً:

ـ ماذا نعمل؟

مال الساحر على وجه الملك. همس ببعض الكلمات في أذنه. فتح الملك عينيه.

(*) عنصر الـ ين هو الأنثى والظلام والبرد. عنصر الـ يانغ هو الذكر والضوء والدفء. ومن هذين العنصرين تتكون العشرة آلاف شيء. وفي الحكمة الصينية أن أي اضطراب في توازن هذين النقيضين هو ضد التاو وبدء الخراب.

تقدم السيد تاي مدهوشاً وهمس:

ـ منذ أيام لم يفتح جلالته عينيه.

رفع الساحر عينيه إلى السيد تاي، ثم رمق الأمير ياو بنظرة خاطفة. فغادرا الغرفة وتركاه مع الملك.

حكاية هوي

في الفجر غادر الساحر الغرفة.

وجد الطبيب تاي بانتظاره، مع الحاكم الأحمر وناظر القصر والمستشار الإمبراطوري وحفنة من النبلاء، يتوزعون على مقاعد في الممر، والشمعدانات تضيء وجوههم.

قال الساحر للطبيب تاي:

ـ كيف عالجته؟

أجابه الطبيب تاي:

ـ دلّكته بالزيوت. استخدمت الإبر. سقيته الجنكة(*) المغلية، أطعمته عسلاً برّياً ولبناً، وحين أصيب بإسهال سقيته القرفة(**)

(*) تُعرف بذورها بـ «باي غو»، وهي علاج مصاحب للوخز بالإبر. وقد ظهرت هذه النبتة على الأرض قبل مئتي مليون سنة، وانقرضت من البرية منذ قرون، ولكنها حُفظت في حدائق معابد الشرق الأقصى.

(**) يستخدم لحاء شجرة القرفة، الـ «رو غي»، كمنشط لعمل الكليتين، وكمضاد للجراثيم. وأورد بلينوس الكبير (القرن الأول الميلادي) هذه الأسطورة حوله: «هناك حكاية تقول إن شجر القرفة ينمو حول مستنقعات يحميها نوع رهيب من الخفافيش. وهي حكاية اخترعها السكان المحليون لرفع السحر».

والشاي وجوزة الطيب. قويت الحمى عليه، فغليت له «سان كي»(*) مع أوراق الصفصاف الأبيض. حين بات يتقيأ كل ما يشربه ويمتنع عن فتح عينيه أخرجت كل الأثاث من الغرفة كي لا يبدّد ويمتص ما بقي من «كي» في جسده، وحاولت أن أمنع دخول الناس عليه. فهل أخطأت؟

أخرج الساحر جذوراً وأوراقاً وعيداناً من أثوابه. دفعها إلى الطبيب قائلاً:

- الخياط العظيم قلما يستعمل المقص. الطبيب الماهر قلما يستعمل الدواء. من يعرف الخطأ من الصواب؟ خذْ هذه إلى خزانتك، واحفظها. وكلما أردت أن تقربها تذكرْ كلماتي: الطبيب الماهر يكره استعمال الدواء.

التفت الساحر صوب الآخرين، وقال:

- الملك بحاجة للإختلاء بنفسه.

وكلّم الساحر الطبيب من جديد:

- الآن اذهبْ واجلبْ بعض الرزّ وبعض الفاكهة. الملك سوف يأكل بمفرده. أعطِهِ الطعام وأخرجْ.

مضى الساحر في متاهة الممرات حتى بلغ غرفة هوي. كان الباب موارباً فدخل. الضوء ينزل من الكوّة ويقع قرب رأس النائم. قال الساحر:

(*) يُسمى أيضاً بالجنسنغ الكاذب، وهو مسكّن للألم، ومنشّط لعمل جهاز المناعة، وشافٍ للجروح.

ـ قد جئت. استيقظ!

فزع الأمير هوي، وقام جالساً. قال:

ـ رأيتك في منامي تتحدث مع أبي وتشفيه من مرضه.

قال الساحر:

ـ لم أشفهِ. أعطيته برهةً من الراحة. كانت العظام تذوب تحت جلده من النار، فلمسته بطبيعة الجليد التي فيّ، فأحسّ ببرد خفيف وفتح عينيه.

قال الأمير هوي:

ـ كان يتوارى في الهاوية فجذبته إلى أعلى.

قال الساحر:

ـ لم أرفعه من ظلمة الهاوية. كانت الوظائف الطبيعية لجسده تتوقف فأريته نفسي في صورة السماء، فانجذب لحظةً إلى فوق.

قال الأمير هوي:

ـ كان يتلاشى ويضمحل، فأعدت جمع ذرّاته.

قال الساحر:

ـ لم أجمع ذرّاته. كان قد أضاع الـ تاو فأريته نفسي متغيرةً بدون أن تفقد جوهرها. تابعته بالفراغ في مرونة. لا أدري من هو وماذا هو، تبعاً للأشياء أتغير. تبعاً للأشياء أجري. ولذا تجمد حيث هو كالمذهول فتوقف عن السقوط.

قال الأمير هوي:

ـ اقتنعتُ أنه لم يُشفَ بعد. فأين الشفاء؟

أجابه الساحر:

ـ أنت.

نكس هوي رأسه. نظر الساحر إلى الجلود ورؤوس الحيوانات المحنطة على الجدران. رأى الأقواس والنبال والسيوف والخناجر مبعثرة على الأرض. قال:

ـ أخبرني ما حدث. قمْ بالرحلة في الخواء من جديد. تكلمْ!

خرجت الكلمات من فم هوي كالهذيان (هكذا حدث للحاكم أيضاً طوال الأيام الأربعة الفائتة). قال:

ـ في ذلك اليوم، عند الظهيرة، جاء أحد رجالي وأخبرني حكاية غريبة. قال أن أهالي قرية أوجويو(*) شاهدوا خلال الليالي الماضية سمكاً يطير من البحيرة، فيحلق بجناحين فوق الحقل، ويرعى العشب(**)، ثم ومع أول الفجر يغطس في البحيرة من جديد وقد أخفى جناحيه. كان أبي حاضراً حين حكى الرجل حكايته. فقررنا أن نذهب إلى أوجويو لنرى بأم العين ذلك السمك الغريب. على الفور انطلقنا. كانت الملكة بالطبع نائمة. وفي الساعة الأولى من الليل، وكنا كامنين بين الأعشاب الطويلة نراقب سطح البحيرة وقد أضاءه نور القمر، التفت أبي صوبي، وقال: «عدْ إلى القصر، وقلْ للملكة أننا لن نرجع قبل الصبح». ركبت حصاني وانطلقت. في آخر الساعة الرابعة من الليل بلغت القصر. مضيتُ إلى مخدع الملكة فوجدتها نائمة، فقرعت باب المخدع الخارجي حيث الوصيفات. ثم بدلت رأيي قبل أن يُفتح الباب،

(*) هذه غير مدينة أوجويو التي يعبد أهلها الأوثان، والمشهورة بأعواد الخيزران الضخمة التي تنمو فيها. (محيط العود الواحد خمسة أشبار!).

(**) عن «أخبار الزمان» للمسعودي.

وقلت أذهب إلى المطبخ وآكل لقمةً، ثم أعود وأكلم الملكة بنفسي. فمنذ أيام وأنا أقضي أيامي خارج القصر، ولقد اشتقت إلى رؤيتها، والحديث معها. مضيتُ نحو المطبخ لكني قبل أن أصل إليه رأيت باب غرفتي مفتوحاً، فذهبت لأوصده، فسمعت حركة في الداخل، فدخلت. في الداخل وجدت مهراً صغيراً، فلواً. هذا يحدث دائماً في القصر لأن معظم الأبواب تظل مفتوحة. رفعت الفلو وجلست على السرير وداعبت عنقه. كنت متعباً. فمنذ أيام لم أنم: أذهب أول المساء إلى السوق العمومي ولا أعود إلى القصر إلاّ في الفجر. أنا لا أحب خليلات القصر، لا هنا ولا في كاتاي، كيف أقول هذا؟ لا أحبّ نظافتهن. أحبّ المرأة التي تشبه النمر أو الفهد. وهذه لا أجدها هنا بل هناك، في دور البغاء. أين كنت؟ كنت أداعب الفلو حين غفوت. غفوت فرأيتني في مكان مظلم. أين أنا؟ سألت نفسي. فلم يجبني أحد. ثم نسيت من أنا. نسيت إسمي، نسيت أنني الأمير وأنني الابن الأكبر للملك، ونسيت كل شيء. تلمست جسدي فرأيت أنني طويل، ولكنني فجأة فقدت بدانتيٍ. تلمست ثيابي فاكتشفت أنني لا ألبس جلوداً (وأنا لا ألبس إلاّ الجلود) وأدركت أنني ألبس ثوباً من القطن. (الملك والملكة وأخي ياو لا يرتدون غير الحرير). ثم عرفت من أنا؟

قاطعه الساحر:

ـ رأيت أنك أنا.

تابع هوي حكايته كأنه لم يسمع كلمات الساحر:

ـ عرفتُ أنني الساحر، الساحر الذي يعيش في الخلاء، والذي

سكن قبل زمن بعيد في جبل كويي. في «كهف النار». في مسكن التنين المقدس. ومشيت في الظلمات. لأني حين عرفت من أنا، حين أدركت أنني الساحر، تبدّد الخوف مني. كنتُ المشّاء الذي لا يترك أثراً. كنتُ واحداً مع تراب الأرض. كنت ممتلئاً بالـ تي. وفاضت الـ كي مني وغمرت الأشياء. كنتُ في التاو. في الغراب، في النمل، في النمور، في الأدغال، في الضباب، في الآجر والقرميد، وفي الروث أيضاً. تقدمتُ في الظلمة، على هدبي ظلّ الموت، جسمي حفنة غبار تملأ ثوباً، وروحي ساكنة في الاضطراب العظيم. كنت مثل ليه تسه. أمضي في اللامتناهي. واقفاً في العالم كأني كتلة من التراب. مع الواحد حتى النهاية. حين فجأة سمعت تلك الهمهمة. صوت أعرفه جيداً. هذه إمرأة نائمة ترى حلماً. إنها تُهمهم في المنام. جذبني الصوت كما تجذب رائحة الخراف الذئب. تبعتُ الصوت الهامس حتى مخدع الملكة. كانت ممددة في العتمة. لكني رأيتها بعيني الثالثة. عين القلب. وتقدمت. تمددت قربها ثم فوقها. أبعدت أثوابي وأغطيتها. كانت تنام عارية تحت الغطاء. وأبصرت جسدها الكامل وسط الحرير. خرجت الرائحة منه وغمرتني. ما تلك الرائحة التي لا توصف؟ رائحة من السماء. كرائحة الخروف المقدس(*). ضوع وعطر وأريج، كنت أغرق في الروائح، وأنزلق على قوس القزح، وأنزل إلى قعر البحر المحيط. رأيت المرجان والمحار، رأيت الصدف ينفتح واللؤلؤ يلمع، رأيت النبات اللولبي وأنواع الحيوانات الغريبة. سبحت في السماء مع التنين والعنقاء. ودخلت

(*) في أسطورة قديمة أن السماء أرسلت للبوذا الجائع وسط الصحراء خروفاً رعى في أراضي الجنة مدة خريفين، فكانت رائحته عشباً من السماء.

في قرص الشمس الأحمر. ونزلت إلى النهر. في فراش الأعشاب واللوتس جلست. وجاءت السلحفاة المقدسة وقرأت الوصايا المنقوشة على ظهرها وخرجت. فرحت وركضت وعبرت مرجاً أخضر، خضت في نهر، وداعبت وحيد القرن في الوادي الترابي. كان قرنه الأبيض يلمع كقرن من عاج، ولمسته، وكان أنعم من الحرير. ثم رأيت العينين. أولاً حسبت أنني أرى عيني وحيد القرن، عيني حيوان مقدس هو غزال وحصان في آن معاً، ولكنه ليس بغزال ولا بحصان، وله قرن لا يشبه في شيء قرن الكركدن. الكركدن بشع، له جثة الجاموس، والقرن الصخري في رأسه أبشع من البشاعة.

حين ترى الكركدن يتمرغ في الوحل تكاد تتقيأ. حيوان كريه، وأما وحيد القرن! كنت أركض معه في الوادي، نخوض في التيار، ونسبح في ضباب، ونتدحرج فوق هضبة. ثم فتح عينيه، وفي اللحظة التالية انتبهت: إنها الملكة، لقد فتحت عينيها، لقد استيقظت من النوم. يا لها من زرقة! ليست زرقة سماء الصيف اللازوردية، ليست زرقة مياه البحر المائلة إلى الرمادي ـ الأخضر. ليست زرقة من هذا العالم. وأنا أعرف هذا العالم. التمرغ في الأجساد. الركض خلف النمر. النوم في ضوء النجوم. الاستيقاظ مع ندى على الوجه وطلّ على خصل الشعر. طعم الكمثرى. طعم اللحم المشوي. ضوء الفجر المرسوم كخيط فوق التلال. نقيق الضفادع، وموسيقى الجداجد، والسكون. أعرف العالم. الخوف أمام الضواري الجريحة. الخوف في الكابوس. الرغبة في ما لا تملك. الارتجاف أمام المرأة. اللعب مع الأصحاب. الخمرة والضحك وسهر الليل. أعرف العالم، أعرف الألوان، لكني مثل

ذلك اللون لم أرَ أبداً. كان اللون في عينيها كاملاً. أزرق وليس أزرق في اللحظة ذاتها. ثم سمعت صوتها، وأحسست بحركتها تحتي. هل خافت أم أحبتني وأرادتني هي أيضاً؟ لا أعلم. لكني في تلك اللحظة ذاتها استيقظت على صراخ.

أعرف صوت تاتشون التي في بطنها حملتني أنا وأخي، ومن ثديها أرضعتنا. أعرفه كما أعرف الندبات على جسدي. وتلك كانت صرختها. قفزت وركضت نحو مخدع الملكة. بطرف عيني رأيت الفلو(*) الجميل يختفي في متاهة الممرات. وركضت. في منتصف الطريق سمعت أحدهم يحكي ما جرى. كان يقول إن الملكة غابت عن الوعي. كان يقول إن رجلاً تسلل إلى مخدع الملكة قبل قليل، وتمدد معها. حين سمعت ذلك تجمدت. تحولت إلى تمثال. لم أعد أفهم شيئاً.

قال هوي إنه لم يعد يفهم شيئاً. تحول إلى تمثال، وأحس بذهنه يتحول إلى حطبة يابسة. وسكت. سكت ونكس رأسه. فتكلم الساحر:

ـ هل تريد للملك أن يشفى؟

رفع الأمير هوي عينيه نحو الساحر، فلم يرَه. كان الضباب ينزل من عينيه، ويغطي وجه الأرض. وسمع الساحر يقول:

ـ حياة الملك في يدك. قمْ واذهبْ إليه. فالسماء فارغة.

دمدم الأمير هوي ببضع كلمات، كان يقول إنه لم يفهم.

فقال الساحر:

(*) المهر الذي فُطم أو بلغ السنة.

ـ التاو إناء فارغ. مصدر لا يُسبر لعشرة آلاف شيء. هو كالحيوانات المقدسة. مخبوء بعيداً ولكن حاضر أبداً. لا أدري من أين جاء، لكنه سلف الأباطرة.

ارتعش الأمير هوي. كاد جسده يقع عن حافة السرير. مدّ يده وتمسك بالأغطية. تابع الساحر:

ـ السماء والأرض ليستا حميمتين. إنهما تعاملان عشرات ألوف الأشياء مثل دمى القش وفزاعات الحقول. ولكن الملك ليس ككل الأشياء. فالملك جليل. هو من القوى الأربع للوجود، وهو طبيعي. والتاو يتبع ما هو طبيعي، فكيف تدمره السماء؟ الملك سوف يعيش، لكن خلاصه في يدك. فلا تخفْ واركضْ إليه، لأن السماء سوف تغفر لك خطيئتك.

البركة

خرج الأمير هوي ومضى عبر متاهة الممرات تاركاً الساحر في غرفته.

تلفت الساحر ورأى مرة أخرى أسلحة الصيد، والجلود والفراء والمخالب والقرون، ثم تطلع إلى أعلى، ونظر خاشعاً ـ عبر الكوّة ـ إلى سماء الصباح الزرقاء. أغمض عينيه هامساً:

ـ الآن أعرف قرباني. ويوم تستيقظ الملكة أرفع قرباني إلى السماء.

فتح الساحر عينيه، فرأى نجمة الصباح(*) اللامعة. وعرف أن السماء تباركه، وتُصادق على وعده لها، فلمس جفنيه ورموشه، ثم أخرج تنهيدةً من الأعماق.

وأما الأمير هوي فبلغ غايته، ودفع الباب الثقيل المطعم بالجواهر الساطعة كالنجوم، ثم دخل.

وجد الجارية تاتشون تغسل يدي الملك في إناء من الخزف

(*) هي كوكب الزهرة، وتُسمى أيضاً نجمة المساء.

الأزرق والأحمر. التفت الملك صوبه. كان جالساً في سريره، وشعره الأبيض الطويل مربوط في جديلة تتدلى على ظهره. قال:

ـ اقتربْ!

اقترب الأمير هوي من سرير أبيه فابتعدت الجارية تاتشون إلى الزاوية حاملةً الإناء الفخاري. كان نور الصباح قد أخذ يتدفق عبر بوابة الشرفة. شمّ هوي رائحة الشموع المطفأة فوق رأسه. انتظر كلمات الملك.

قال الملك له:

ـ يا بني.

فقال هوي:

ـ هاأنذا.

فقال الملك:

ـ إنني قد شختُ ولست أعرف يوم وفاتي(*). فالآن خذْ عدّتك جعبتك وقوسك واخرجْ إلى البرّية وتصيّد لي وحيد القرن المقدس. واحفرْ حول قرنه، كما يُحفر التراب حول جذرٍ، وآتني بالبصلة السمراء التي منها نما القرن، حتى تباركك نفسي قبل أن أموت.

هتف هوي مضطرباً:

ـ الساحر قال لي إن تاو السماء مسننة ولكنها لا تؤذي. الساحر قال لي السماء غفورة وأن شفاء الملك في يدي. فلماذا

(*) العهد القديم: الأصحاح السابع والعشرون من سفر التكوين.

تكلمني عن الموت يا أبي؟

أجابه الملك:

ـ في الختام لا بد وأن أموت. الملك جليل، بلى. غير أن الملك أيضاً حفنة من غبار. ولكن كي تبقى المملكة وجُب أن تستيقظ الملكة، فأُشفى من المرض، وتُشفى الأرض أيضاً.

قال هوي حائراً:

ـ سوف تُشفى إذاً، فلماذا قلت إنك ستموت؟

ابتسم الملك المريض وقال:

ـ عيني كلّت عن النظر. وقبضتي ارتخت. إذا جلبت البصلة السمراء من رأس وحيد القرن، شُفيت. هكذا أخبرني الساحر. لكنني أُشفى إلى حين. وبعد وقت يأتي رسول الموت ويخطفني كما يخطف كل إنسان.

نكس هوي رأسه وقال:

ـ والملكة هل تستيقظ من جديد؟

أجابه الملك:

ـ سوف أُشفى لأنها سوف تستيقظ. الساحر قال لي كيف سيحدث ذلك. من يعرف ماذا يخبئ المستقبل؟ الحكيم أيضاً لا يعرف. لكن الساحر رأى ذلك في المنام. وهو أخبرني.

سأله هوي:

ـ ماذا أخبرك؟

أجابه الملك:

ـ قال لي إنك ستصيد وحيد القرن المقدس، بعد أن تعثر عليه

في وادي الغزلان، قرب جبل كويي. قال إنك ستنتزع البصلة السمراء وتجيء بها إلي. قال إنني سأزرع البصلة في إناء من فخار، وأسقيها بماء باردة من النهر. بعد يوم تفرّخ البصلة فرعاً أخضر. وكلّما فاحت رائحة الماء فرّخ الفرع ورقة تشبه ورقة النعناع. هذه الأوراق أغليها وأشربها، فلا أموت. أتابع العناية بالنبتة الخارجة من البصلة، حتى تبرعم وتظهر من رأسها زهرة زرقاء. هذه الزهرة سمّاها الغابرون زهرة السماء. هي زهرة غريبة، إذا قرّبها الإنسان من أنفه لم يشم شيئاً. فكأنه قرّب إلى أنفه حجراً مغسولاً بالماء، أو قطعةً لا قيمة لها من خشبٍ أو قماش. لكنه ما إن ينام حتى يتذكر الزهرة التي حاول أن يشمّ رائحتها، وهكذا وبينما هو نائم، تملأ رائحةٌ فواحةٌ صدره ورئتيه. هكذا أخبرني الساحر عن زهرة السماء. وقال إنني سأحمل الزهرة إلى مخدع الملكة، وأقرّب الإناء الفخاري من وجه الملكة، وأجعل بتلات الزهرة الزرقاء تلامس أنف الملكة. في تلك اللحظة تفتح الملكة عينيها. في اللحظة ذاتها أشفى من المرض، وتُشفى معي أرض المملكة.

لما انتهى الملك من الكلام قام هوي واقفاً وقال:

ـ ها أنذا ماضٍ يا أبي.

فأمسكه الملك من ثوبه، وقال له:

ـ انظرْ تحت السرير.

انحنى هوي ونظر. فرأى صحناً فيه فاكهة. رأى حبّة كمثرى التهم الملك نصفها. ورأى عنقود عنب أكل الملك نصفه. أزاح صحن الفاكهة، فرأى خنجراً. التقطه ونهض. قال الملك:

ـ هذا خنجر الملك بنغ. أهداه لأبي الملك لي. إنه أقدم خنجر تملكه أسرتنا، أسرة شانغ. لقد رأى هذا الخنجر عدداً لا يُحصى من المعارك. وطعن عدداً لا يُحصى من المخلوقات. وها أنا أضعه في يدك. فحين تصيد وحيد القرن إقلع البصلة من رأسه بحدّ هذا الخنجر، لكي تكون أرواح الأجداد معك، فتربح محبة السماء. والآن، اذهبْ!

صاحب الخطوط

مضت الجارية تاتشون إلى غرفة ياو. كان جالساً إلى طاولته، يرسم في النور المتدفق عبر النافذة. قالت له:

ـ قد سمعت أباك الملك يكلّم أخاك هوي قائلاً: إذهبْ إلى وادي الغزلان، وائتني بالبصلة السمراء من رأس وحيد القرن المقدس، حتى أباركك أمام السماء قبل وفاتي.

وقعت الريشة من يد ياو. وتساقطت قطرات حبرٍ سوداء على الأرض. قال محدثاً لا أحد وكل الأشياء معاً:

ـ ها هو يسبقني إلى بَرَكَة أبي، ها هو يسبقني إلى عرش المملكة، بعد أن سبقني إلى البكوريّة(*).

نهض وأزاح تاتشون جانباً وخرج إلى متاهة الممرات واختفى.

وأما الجارية تاتشون فمضت إلى مخدع سيدتها الملكة، كي تجلس قرب سريرها، وتدلك قدميها بزيت الليمون، وتتأمل جسدها الكامل. هكذا فقط تستعيد تاتشون سكينتها.

(*) يقصد أن هوي زاحمه وخرج قبله من بطن تاتشون كي تكون البكوريّة له.

لكن في طريقها إلى مخدع الملكة فوجئت تاتشون بالساحر. بدا كأنه خرج من الهواء ذاته. وقال لها:

ـ لماذا تفضلين ياو على هوي؟

ارتبكت تاتشون وظلت صامتة. فقال لها الساحر:

ـ ياو صاحب خطوط. وصاحب الخطوط صاحب أحلام أيضاً. ومن كل حلم تخرج رغبة. لأن الرغبة حلم. وكل رغبة خطيئة.

لم تقل تاتشون شيئاً. فتابع الساحر:

ـ ياو يحب رسم الوجوه. يريد أن يصوّر الإنسان بخطوطه. يلاحق الجميع كي يصوّرهم، ولا يذهب لتصوير الطيور والأشجار والسهول إلاّ فيما ندر. لماذا؟

هزّت تاتشون رأسها، قالت:

ـ ماذا أعرف أنا؟

ابتسم الساحر وقال:

ـ الذين يتكلمون لا يعرفون. الذين يعرفون لا يتكلمون؛ أنتِ العارفة إذاً، وأنا الجاهل!

خافت تاتشون. صوت الساحر كانَ كفحيح أفعى. زعقت:

ـ ماذا تريد مني؟

أجابها الساحر:

ـ قال الغابرون: كان الإمبراطور تاي ينام في سكينة ويفيق في بساطة قانعة. مرة كان يرى نفسه حصاناً ومرة ثوراً. معرفته كانت صادقة، فضيلته أصلية ولم يغرق أبداً في التمييز بين ما هو إنسان

وما هو ليس كذلك.

قالت تاتشون:

- لا أفهم. ماذا تريدني أن أفعل؟

أجابها الساحر:

- إني أحدثك عن ياو. ياو معرفته غير صادقة. لأنه يميز بين الأشياء. والتمييز مبتدأ الإحتقار. فإذا إحتقرنا شيئاً فلماذا لا تحتقرنا السماء؟

قالت تاتشون:

- ياو كالطفل، لا يطلب إلاً الحبّ. والملك عينه مع هوي دوماً، وأذنه كذلك. وأما ياو فمن له؟

أجابها الساحر:

- ياو أفسد فضيلته بالتوق إلى الشهرة. قبل زمن بعيد عرفت كثيرين مثله. والملكة أيضاً عرفت.

سألته تاتشون:

- وأنا، ماذا سيحدث لي؟

أجابها الساحر:

- كلنا نمضي إلى المطرح نفسه. يحملنا العالم في أبداننا، يكدح بنا طيلة العمر، يعطينا السكينة في شيخوختنا، ويتركنا نستريح في الموت. ذلك ما يجعل حياتنا طيبة وموتنا طيباً أيضاً. هل أتكلم بعد؟

هزّت الجارية رأسها بالإيجاب. تابع الساحر:

ـ هذه كلمات العزيز تشوانغ تسه، أمنحك إياها كي تبددي الخوف من قلبك. فكل خطيئتك أنك لم تعرفي أين تضعين قلبك، فهل هذه خطيئة؟ أألفظ الكلمات؟

هزت الجارية رأسها بالإيجاب من جديد. أردف الساحر قائلاً:

ـ إن التمسك بالصورة البشرية مصدر للمتعة. لكن هناك في المجرى اللانهائي ألوف الصور المساوية في الصلاح. وإنه لنعيم لا نظير له أن نقع تحت هذه التحولات التي لا تُحصى. ومن هنا يقوم الحكيم برحلاته داخل ما لا يخشى عليه الفقدان ويبقى معه حتى النهاية.

قالت الجارية كأنها تتحدث في منام:

ـ ما لا يخشى عليه الفقدان؟ التاو، الخلاء.

قال الساحر:

ـ فعلاً، الخلاء.

وسألته الجارية:

ـ والتحولات؟

فأجابها الساحر:

ـ حفنة الغبار تراب. من التراب تفقس جرثومة الحياة. ومن الجرثومة يُفرّخ النبات، والحيوان، والطير، والإنسان أيضاً. عرفت رجلاً تحول إلى وطواط بعد أن جرح أخاه. كان يُدعى ياو، مثل ابنك، مثل ابن الملكة.

سألته الجارية:

ـ متى؟ في الزمان الذي عاشت فيه الملكة؟

أجابها الساحر بغموض:

ـ أليست الملكة على قيد الحياة الآن!

الخلاء

وقف الطبيب تاي قرب بوابة الشرفة يراقب الساحر الجالس على العشب. كان الساحر قد مدّد ساقيه نزولاً، صوب البحيرة، حيث تسبح البطّات، وتقوقي، وتغطس رؤوسها، وتطرطش ماءً في الفضاء.

هنا وهناك، في أنحاء الحديقة، يسرح غزال، يدور حول شجرة جوز أو برتقال أو كمثرى أو نارنج، يعثر على طاسة ذهبية طافحة بالحليب، يتوقف، ينظر حوله، ثم يشرب. يلعق بلسانه فتقع قطرات بيضاء حول الطاسة الصفراء. خلف الغزال يقفز أرنب. وفي الجوار تزحف سلحفاة، وتخفق أوزة بيضاء بجناحيها. كان الساحر جالساً لا يبالي بشيء. فقط يحدق إلى صفحة البحيرة الملساء، وظهره للقصر ولشرفة الملك.

التفت الطبيب تاي إذ سمع صوتاً خلفه، فرأى الملك يشير إليه بالاقتراب. قال الملك:

ـ أما يزال جالساً حيث هو منذ الصباح؟

هزّ الطبيب تاي رأسه قائلاً:

ـ لم يتحرك. كأنه تمثال.

سأله الملك:

ـ من هو الساحر؟ من أين جاء؟

أجابه الطبيب تاي:

ـ لا أحد يدري. إنه قديم، قديم كالغابرين. يعيد الناس إلى ما ضيّعوه، ويساعد العشرة آلاف شيء في العثور على طبيعتها. لكنه منعتق من الفعل(*).

شرد الملك محدقاً نحو السماء عبر البوابة المشرعة. سأل:

ـ وياو؟ ألم تعثروا عليه بعد؟

أجاب الطبيب:

ـ لقد أخذ ثلاثة أحصنة. وأخذ سلاحاً. ولا نعلم أين ذهب.

سأله الملك:

ـ وتاتشون؟

أجابه الطبيب:

ـ لقد اختفت. ذابت في الهواء كما يذوب الملح في الماء. لا أحد يدري أين ذهبت. إحدى الوصيفات رأتها في منام.

سأله الملك:

ـ في منام؟ ماذا رأت؟

أجابه الطبيب:

ـ رأتها شاردة في البرّية، تلبس ثوباً من وبر الإبل، ولا تأكل

(*) النشيد الرابع والستون من الـ «تاو تي تشينغ».

غير الجراد والعسل البرّي.

أغمض الملك عينيه. تغطى جيداً. انقلب على جنبه الآخر. عاد الطبيب إلى مراقبة الساحر الجالس عند حافة الحديقة.

في صفحة الماء بدأ الساحر يرى الغيوم، واللون البرتقالي للغروب، وسكون الكائنات عند إقبال المساء.

قام ونزل حتى خيط الماء. غرف حفنة، ملأ بها باطن يده، ونظر.

في باطن يده، في بلّورة الماء، رأى الساحر كل شيء. كان ياو يطارد هوي حول دغل الخيزران. ورأى الغربان والصقور والنسور تحوم فوقهما. ورأى الريح وكرّات الشوك. شمّ رائحة البابونج الفوّاحة، ولسعه بردٌ خفيف. فاحت رائحة الرطوبة والعتمة الراكدة في كهوف الجبل. ورأى الساحر مسكنه القديم، رأى «كهف النار»، وأحسّ بأنفاس التنين على وجهه.

كان ياو يطارد هوي بالنبال. قد فاجأه وهو نائم. كان هوي بعيداً عن حصانه وقوسه. ورآهما الساحر الآن ينحدران نحو أعماق «وادي الغزلان».

قطعا خيط النهر النحيل، وقفزا فوق الصخور. رأى الساحر الأعشاب والجذور والورق اليابس والتراب الأحمر. أحسّ ببرد الوادي، وسمع صوت الشلال. والشلال كان ضعيفاً. حين قفز هوي خلف شجرة يابسة سمع الساحر سهم ياو يمزق الهواء، فيطغى على هدير الشلال المكتوم، ثم ينغرز في الجذع اليابس الذي حفره السوس. سقط الجذع. ظهر كتف هوي خلفه. شدّ ياو

الوتر وأرسل سهماً آخر، فانغرز في كتف أخيه هوي.

ركض هوي صارخاً والدم ينزف من كتفه. طارده ياو حتى غابة من أشجار الصنوبر. استطاع أن يقذفه بسهم آخر، فأصابه في ساقه.

سقط هوي على جنبه كالنمر المصاب. السهم اخترق لحم فخذه وخرج لامعاً بالدم. تلمس هوي عضلات بطنه وأحسّ بها تتمزق: إنهما يركضان منذ ساعة، منذ ساعتين، منذ سنوات، منذ أن وُلدا. وها هو قد هوى.

وسمع ياو يهتف:

ـ أين أنت أيها العاصي؟

تدحرج هوي على تراب المنحدر. زحف بين الصخور. كان الضوء يتلاشى. وتساءل هل يقدر على إخفاء نفسه. في تلك اللحظة غطّاه الظلّ. رفع هوي عينيه، فرأى ياو حاملاً سيفاً والشرّر يتطاير من عينيه.

في باطن كفّه، في بلّورة الماء، رأى الساحر الحزن على وجه هوي. وسمع صوت ياو مثل قهقهة مريرة:

ـ قلت للملكة إنني أنت، فصدقتني.

ارتفع السيف. سطع شعاع على الشفرة. بدأ السيف يهوي. ورأى الساحر هوي يمزق ثوبه، يقبض على الخنجر، ويثب كالفهد طاعناً بطن أخيه. سقط السيف من يد ياو.

انبطح هوي قرب جثة أخيه. كانت الدماء تنزف من فخذه وكتفه. وأحسّ ببرد فظيع. كان القرص الأحمر يختفي وراء الغابة،

والعتمة تزحف كبزاقة عملاقة، فتغطي كل شيء.

فكر هوي أنه سوف يموت. سمع حركة فرفع رأسه. ورأى وحيد القرن المقدس. هذا الحيوان الذي اختفى من أراضي الإمبراطورية قبل دهور. اقترب وحيد القرن منه، خفيفاً مثل أجمل غزالة في العالم، ورقد قربه. لمس الحيوان المقدس جروحه برأس القرن الأبيض كالثلج. لمس الكتف، لمس الفخذ، لمس جسد هوي كلّه، وتمرغ على بطنه. حتى أحسّ هوي أنه قد تحوّل ورجع وعاد كما كان قبل زمن بعيد.

مدّ هوي يده. داعب العنق الكاملة. قربه ياو الميت. على بعد خطوات الغابة. وفوقه جبل كويي وسماء المساء. نظر هوي في عينيّ الحيوان المقدس. غرق في زرقة لا متناهية. والجروح في جسده كانت قد برأت جميعها.

عانق هوي جسد المخلوق الكامل ونام.

في المنام جاء إليه الساحر. قال له هوي:

ـ ياو مات، قتلته بالخنجر الذي أعطاني إياه أبي.

أجابه الساحر:

ـ ياو هو القربان. الملك قدّمه للسماء.

قال هوي:

ـ كان يريد قتلي.

قاطعه الساحر:

ـ سمعت ورأيت كل شيء. كنت أراقبكما من الخلاء.

قال هوي:

- لكن كيف أقتل وحيد القرن المقدس بعد أن شفاني؟

قال الساحر:

- على الواحد أن يفعل ما هو ضروري.

فتح هوي عينيه. كان الحيوان المقدس ينام قربه. جسده ساخن، وتنفسه منتظم. في عتمة المساء مرّر هوي يدّه على الجلد الناعم. وقبّل الأنف والعينين المغمضتين. على الواحد أن يفعل ما هو ضروري، هكذا قال الساحر.

مدّ هوي ذراعه. قبض على الخنجر، وجذبه من لحم أخيه. كان الخنجر ساخناً. وضعه هوي على عنق الحيوان المقدس، وأخذ نفساً طويلاً، ثم شدّ قبضته. كان الحيوان يهمهم في نومه. عرف هوي أنه لن يقدر على قتله. طوّح بالخنجر بعيداً، وأغمض عينيه.

جاء إليه الساحر من جديد. قال:

- قرب رأسك صخرة فاقتلعها. تحت الصخرة تراب متعفن فاحفرْ فيه. على عمق قرنٍ - كقرن الحيوان الراقد قربك - تجد بصلة سمراء، أصغر من بيض الدجاج ولكن أكبر من بيض الحمام. عذْ بها إلى القصر!

فتح هوي عينيه فرأى أن وحيد القرن قد اختفى. ونظر ورأى الصخرة. تماماً كما أخبره الساحر في المنام.

في باطن كفّه رأى الساحر هوي يقتلع الصخرة ويحفر التراب

بالخنجر. أغمض الساحر عينيه وباعد ما بين أصابعه، فنزل خيط الماء وضاعت قطراته في التراب.

على شرفة القصر، التفت الطبيب تاي، وقال للملك الراقد الذي استيقظ فجأة ودعاه إليه، قال الطبيب للملك:

ـ بينما كان جلالتكم نائماً قام الساحر ومشى حتى البحيرة وغرف منها حفنة ماء، والآن فقط ترك خيط الماء يتبعثر.

قال الملك:

ـ رأيت دماً على خنجري. انظرْ ماذا يفعل الساحر الآن. اهتفْ له. قلْ إنني أطلبه.

مضى الطبيب إلى الشرفة: لم يكن الساحر قرب البحيرة. تلفت الطبيب يبحث عنه بعينيه في أنحاء الحديقة، فلم يجده. استدار وقال للملك:

ـ لقد اختفى.

تسلق الساحر الهضبة. التفت وألقى نظرة أخيرة على كين ساي. السماء قد تسدّد خطاه إلى هنا مرة رابعة بعد. من يعلم ماذا يخبئ المستقبل؟ ولكن الساحر يعلم شيئاً: ففي المرة القادمة، إذا وُجدت مرة قادمة، لن يكون بمقدوره الوقوف هنا لكي يتأمل كين ساي تغرق في بحر الغروب الأحمر الجميل.

أخذ الساحر ينحدر نحو الغابة. خلال أيام قليلة سيكون في قلب الخلاء. في بقعة ما وسط الصحاري. مع الرمل والسماء

والعناصر. وسوف ينام. سوف يرى هوي وقد رجع إلى القصر حاملاً البصلة السمراء التي عثر عليها في قلب الأرض. سوف يحكي هوي للملك كل ما حدث. سوف يضع الملك يده على رأسه ابنه ويباركه. بعد ذلك يزرعان البصلة معاً. وبعد يومين يدخل الملك حاملاً الزهرة الزرقاء إلى مخدع الملكة. وحين تشم الملكة النائمة رائحة «زهرة السماء» تستيقظ من سباتها، كما استيقظت قبل عشرين سنة.

تفتح الملكة عينيها فتفيض منهما زرقة بلا بداية وبلا نهاية. في اللحظة ذاتها يفتح الساحر عينيه، ويفيق. يشعل ناراً، ينظر إلى الصحراء المترامية الأطراف، يتأمل السماء الزرقاء التي لا حد لها، ويقول:

ـ وحدكِ لا متناهية. الملكة عاشت طويلاً. نامت وأفاقت أكثر من مرة. ولكن هي أيضاً ستموت. هي أيضاً حفنة من غبار. قبل أيام صلّيت وقلت إنني أخطأت. قلت إن عيني أخطأت، وطلبت نوراً يهديني إلى القربان. فنزل النور إليّ من رحابتك التي بلا حدود أيتها السماء. وها أنا كما وعدت أرفع القربان إليك.

سكت الساحر. أخرج عوداً محترقاً من النار. حدّق إلى جمرته. وتلفت حوله، ونظر لآخر مرة إلى أشياء العالم، ثم أحرق عينيه.

ـ تمّت ـ

روايات للمؤلف:

1 ـ سيد العتمة، جائزة الناقد للرواية، دار الريس، 1992.

2 ـ شاي أسود، دار الآداب، 1995.

3 ـ البيت الأخير، دار الآداب، 1996.

4 ـ رالف رزق الله في المرآة، دار الآداب، 1997.

5 ـ كنتُ أميراً، المركز الثقافي العربي، 1997.

ربيع جابر

نظرة أخيرة على كين ساي

هذه مدينة ملعونة، قال لي أخي. ومنذ ذلك اليوم وجسمي يتركني وييبس كالشجرة التي ضرب جذعها السوس وأكل جذرها الخلد. وغداً تخرج الروح من فمي. لا أقول إني أعترض، لا. من بعدي ستزهر شجرة الكرز. من بعدي سيقع مطرٌ على الأرض. من بعدي كل شيء سيكون كما كان. لكني سأكون في أعماق كل شيء. فالتاو هو قانون الأشياء. هو البسيط. وحين ستنطفىء النار في جسمي سأرجع إلى البسيط. أرجع حفنة من غبار.

روايات للمؤلف:

1 ـ سيد العتمة، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ شاي أسود، 1995.

3 ـ البيت الأخير، 1996.

4 ـ رالف رزق الله في المرآة، 1997.

5 ـ كنتُ أميراً، 1997.

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت ـ لبنان
ص. ب 4006 ـ الدار البيضاء ـ المغرب